

سنام الإسلام

نظرات ومراجعات في التجارب القتالية



عبد الوهاب الطريري أبا الخيل



الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م



نَظَراتٌ ومُراجَعاتٌ في التَّجارِبِ القِتاليَّة



نَظَرَاتٌ ومُراجَعَاتٌ في التَّجَارِبِ القِتَالِيَّة

Sinam el islam

ISBN: 978-605-72047-5-2





www.altriri.net
altriri@gmail.com
/altriri
@Abdulwahab.altriri
/c/AbdulwahabAltorairy
t.me/altriri
abdulwahabaltriri
+905467723779

+90 551 163 82 25
wasmbookstore.com
wasm.bookstore@gmail.com
WasmBookstore
Wasm_Bookstore

الطبعة الأولى
1444هـ - 2023 م

وسم للمعرفة والثقافة ـ اسطنبول ـ تركيا
Fatih, Aksemseltin mahallesi, Haliciar Cd, No 18, Istanbul



نَظَرَاتٌ ومُراجعاتٌ في التَّجَارِبِ القِتَاليَّة

عبد الوهاب الطُّرَيري أبا الخيل


بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

بين يدي هذه الرسالة أشكر مشايخي وأساتذتي وزملائي الذين اطلعوا عليها فأفادوني بملاحظات وتتمات استفدتُ منها، فاستدركتُ وأتممتُ، وما كانت لتستتم على هذا النحو لولا تسديدهم وتشجيعهم، **وهم**:

- الشيخ د. عماد الدين خليل (العراق).
- الشيخ د. محمد بن أحمد الصالح (السعودية).
- الشيخ د. عبد الكريم بكار (سورية).
- الشيخ د. أحمد الريسوني (المغرب).
- الشيخ د. عصام البشير (السودان).
- الشيخ د. أبو زيد المقرئ الإدريسي (المغرب).
- الشيخ د. عجيل النشمي (الكويت).
- الشيخ د. همام سعيد (الأردن).

- الشيخ د. وصفي عاشور أبو زيد (مصر).

- الشيخ د. سعد الكبيسي (العراق).

- الشيخ د. على الصلابي (ليبيا).

- الشيخ د. عبد الحي يوسف (السودان).

- الشيخ د. علي مقبول الأهدل (اليمن).

- الشيخ د. نور الدين الخادمي (تونس).

- الشيخ د. طه الزيدي (العراق).

- الشيخ د. عبد السلام المجيدي (اليمن).

- الشيخ د. الطاهري بلخير (الجزائر).

- الشيخ د. حسن بن صالح الحميد (السعودية).

- الشيخ د. نواف التكروري (فلسطين).

فأسأل اللهَ أن يحسن إليهم، ويجعلهم شركاء فيما أحتسب في هذا العمل من أجر ومثوبة، ولا زال العلم رحماً بين أهله، والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه.



بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تحية من عند الله مباركة طيبة، **وبعدُ**:

فإن لهذه الورقات التي بين يديك قصة أقصها، وحكاية أحكيها، وسوف ترى من خلالها الباعث الأول للفكرة، وكيف تجمعت وتطورت في أطوار التفكر والكتابة حتى نبت ريشها، وصفقت بأجنحتها، وطارت إليك، وها هي الآن بين يديك.

ورأيتُ الآن أن القصة التي سأقصها عليك هي أفضل مقدِّمة أقدِّم بها لهذه الورقات.

فإليك حكايتي وخبرها..



قصة الكتاب

في مدينة الرياض، وفي مطعم من المطاعم المغربية، فاخرٌ طعامُه، قليلٌ روَّادُه، دخلتُه أنا وشاب من أقاربي نبحث عن مكان نتحدَّث فيه بأريحية وهدوء، وكان غداء حوارٍ استمر من صلاة الظهر إلى ما بعد صلاة العصر، وكان حديثا رَخِيّاً متواصلاً، فيه هدوء الحوار، ولهفة العاطفة، وتراكم التجربة، والتبصر في هدايات النصوص، مع النظر العقلي والشرعي والمقاصدي، وكان الشاب متحمساً حاسماً في بدايات حديثة، مدافعاً بقوة عن وجهة نظره التي لم أدفعها ولكن دعوته إلى اختبارها.

لقد كان يجادل في الذهاب إلى إحدى بُؤَر الاقتتال في المنطقة، والتي يُسْتَنصرُ لها صغار الشباب؛ لشدة حماسهم، وسهولة قيادهم وانقيادهم.

وكان من حديثي معه: إنك ستسافر سفراً لا تعود منه غالباً، وستخسر روحك التي ليس لها عوض، والحياة ليس لها دور للتجربة وآخر للاستعمال، هي فرصة واحدة غير قابلة للتكرار ولا للتعويض، أفلا يستحق هذا القرار منك بذل الجهد واستفراغ الوسع في دراسة صوابيته، واختبار قرارك، هل هو اجتهاد صائب أم مغامرة طائشة؟

فلما اتفقنا على أهمية دراسة القرار بدأتُ بالسؤال:

ما هو هدف الجهاد؟ هل هو الموت والاستشهاد بغض النظر عن النتائج، أم له نتيجة واضحة وهي أن يؤدِّي إلى إعلاء كلمة الله؟

هل هذا القتال من خلال النظر في سنن الله، وما أجرى لكونه من قوانين الأسباب سيحقق ذلك؟

وهل تم من خلال دراسة الإمكانات والفرص والعوائق، أم هو استجابة لحالة انفعالية؟

وتجاوزت جوابه الصامت وتساءلت:

هل تعلم مَن الذين ستقاتلهم؟! هل هم مسلمون مثلك غَرَّر بهم العدو ليجعلهم حطباً لنيران معاركه؛ فهم يقاتلونك على أنك معتدٍ، وأنت تقاتلهم على أنهم أعداء، والخسارة عليك وعلى المسلمين إن قَتَلتَ أو قُتِلت؟

هل تساءلتَ مَن الذي يموِّل هذا القتال ويدعمه؟ هل تظن أن قتالاً مع دول عظمى يقوم على التسول وجمع التبرعات؟!

نعم والله، إني لأُحبُّك، ولكن هذا الحب لن يجعلني أقف لك في طريق يوصلك إلى الجنة، ولكني أقف أمامك الآن في طريق أخاف أن يهوي بك إلى النار.

ثم بدأنا بالحوار التفصيلي الذي استمر نحواً من أربع ساعات بغاية الهدوء والاصطبار، ذكرتُ له فيه كثيراً مما ستجده في هذه الوريقات التي بين يديك إذا قرأتها.

وما زالت الأسئلة وأجوبتها تهدِّئ من الاندفاع، وتثير الكثير من التساؤل حتى تحوَّل الحماس إلى هدوء، والحسم إلى تردد، وقمنا على اتفاق أن نكمل الحوار في موعد آخر نتناقش فيه حول ما يَجِدُّ له من رأي أو رد.

وتفارطت الأيام، ولم يتحدَّد الموعد الآخر؛ فقد كان مجرد تشغيل آلة التفكير كافياً في اكتشاف الحقيقة التي بدأت تتكشف له عياناً بياناً بعد ذلك.

وصار الشاب يرى بعد ذلك الانزلاقات والانهيارات في المكان الذي كان يظنه ساحة بَدْرٍ أو أُحدٍ، فيزداد اغتباطه بنجاته من هذه الوَرطات التي كاد أن ينزلق إليها، ويحمد الله على عُمْرٍ جديد استأنفه أكثر تبصُّراً وبصيرة، ثم شدا بعدُ في طلب العلم فحفظ القرآن وتفوَّق وتخرَّج.

وها أنا وإيَّاه نتساءل: كم من شبابٍ ذهبوا وقوداً لهذه الحرائق؛ لأن أحداً لم يستوقفهم أثناء الطريق فيوقفهم على دلالات الأدلة، ويبيِّن لهم حقيقة الجهاد ومقاصده، ويكشف لهم ملابسات الواقع والتباساته؟!

ثم التقيتُ من بعد شباباً متألِّقين، علمتُ منهم أنهم كادوا أن ينزلقوا في هذه الهاوية، لولا أن أمسك بحُجَزِهم النصحُ الصادق، وأنقذهم الحوارُ الرشيد.

فلما رأيتُ أثر هذه الحوارات في نجاة هؤلاء شعرتُ أن المسؤولية متعينة في إعلان هذا الحوار، والاجتهاد في تبصير الشباب بدلالات الأدلة، وعرض نتائج التجارب السابقة، والوقوف بهم على الطريق الصحيح للعمل للدين، وإصلاح الأمة، مع الأَناة والرفق، وطول الصبر، والاحتمال لسَوْرة الانفعال، وحِدَّةِ الحماس.

واخترتُ أن يكون عنوان هذه الرسالة: «**سنام الإسلام**»، وهو مستلٌّ من حديث: «**وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»(١).

ومعنى: «ذروة سنام الإسلام»: أشرفه وأعلاه، والسَّنام هو أعلى ظهر الجمل.

---

(١) «مسند أحمد» (٢٢٠٦٨)، و«جامع الترمذي» (٢٦١٦)، و«سنن ابن ماجه» (٣٩٧٣).

ومعنى ذلك أن هناك قوائمَ تَرفَعُه، وبدناً يحملُه، وسَناماً يعلوه، وهذه ذروته.

وإن البداءة بذروة الإسلام، قبل إقامة القوائم وسلامة البدن عكسٌ لبناء الأمة، وخللٌ في ترتيب البدايات والأولويات.

وبعد الاجتهاد في بيان الأدلة وتوضيح الحقائق، فإنا لا نزعم أننا قد أتينا بالحل النهائي، وقضينا على كلِّ المشكلة، ولكنا ساهمنا في البيان، وأعذرنا في البلاغ، واجتهدنا في كشف الالتباس، ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾.

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل
المغرب/ طنجة
السبت ١٢/ ٧/ ١٤٤١هـ



حديث الجهاد

أتانا حين من الدهر كان الحديث عن الجهاد مهجوراً، فإن ذُكر فعلى سبيل الاعتذار والتبرير، ومحاولة الانفكاك من تهمة انتشار الإسلام بالسيف.

ثم اتسع الحديث عنه بعد ذلك في اتجاهات متنوعة، وكان من أبرزها طرفا الغلو إفراطاً وتفريطاً، **وهما**:

أولاً: طرف التفريط ممن يعيش ضغط التهم، ومنطق الاعتذار، ولذا يجتهد في تقديم إسلامٍ مشاعري ناعم، يُحلق في آفاق الوجدان من غير أن يكون له تماس في الأرض، فلا يحفظ حقّاً، ولا يدفع باطلاً، ولا يصد صائلاً، وكأنما يربِّي المسلمين ليكونوا دواجن الأمم!

وكم سمعت من أسماءَ إسلامية انتقادَ الفتوحاتِ الإسلامية ومحاكمتها بمنطق اليوم وظروفه.

وليست هذه الفئة مقصودة في هذه الرسالة، لأن أقوالهم هي رجع الصدى لإرجاف المستشرقين وأتباعهم من المستغربين.

ويكفي في هذا المقام اختصار الكلام مع أساتذتهم ومن أرجف بهم وهم صناع التهم في الغرب، وبدلاً من التعذير والتبرير لديننا فإن علينا أن ننازلهم في ساحة دينهم وتاريخهم، فكتابهم المقدس، وتاريخهم الطويل كاف في نقاشهم.

فكيف يناقشوننا في ديننا وأحكامهِ وشعائرهِ وهم يحملون في أيديهم كتابهم المقدَّس وفيه شناعات دموية، وصور مريعة من العنف والإرهاب ينسبونها إلى الأنبياء، ثم يصابون بالعمى فلا يرونها ولا يروونها[(١)].

ففي العهد القديم: أنّ داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خطب ابنة الملك شاؤول فطلب إليه مهراً مئة غَلَفَة -وهي الجلدة على عضو الرجل التناسلي- من غَلف الفلسطينيين، فانطلق داود مع رجاله فقتل مئتي رجل من الفلسطينيين، وأتى بغلفهم وقدَّمها للملك، فزوَّجه شاؤول عندئذ من ابنته ميكال، وأدرك شاؤول يقيناً أن الرب مع داود[(٢)].

وفيه: أن يوشع هاجم مدن عجلون وحبرون ودبير وقتل ملوكها وكل نفس فيها بحد السيف فلم يفلت منها ناج[(٣)].

وأن موسى قال للإسرائيليين: الآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة ضاجعت رجلاً، ولكن استحيوا لكم كل عذراء لم تضاجع رجلاً.

ويتجاهلون ما ورد في الإنجيل منسوباً إلى المسيح: لا تظنوا أني جئت لأرسي سلاماً على الأرض، ما جئت لأرسي سلاماً بل سيفاً، فإني جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه، والبنت مع أمها، والكنة مع حماتها، وهكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته.

---

(١) ينظر: «العنف في الكتاب المقدَّس» لبول بوشان ودني فاس (ص ٦٢)، و«موسوعة أكسفورد العربية» (١/ ٩٠٥).

(٢) سفر صموئيل، الإصحاح الثامن عشر.

(٣) سفر يوشع، الإصحاح الرابع والثلاثين.

ويتجاهلون ما ورد في العهد القديم من كتابهم المقدَّس من الأمر بقتل الكفار، وحرق ممتلكاتهم، ورجمهم بالحجارة حتى الموت[1].

وأما تاريخهم فتاريخ عدواني دموي بشع، ولا ندري كيف يتهمون تاريخ المسلمين ويحاكمونه، وهذا الإرث الدموي يصاحب مراحل تاريخهم؟!

ويكفي في ذلك المقارنة بين فتح المسلمين لبيت المقدس في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ودخوله إليها بأمانِ أهلِها وحفظ حقوقهم وديانتهم ومعابدهم، وبين دخول الصليبيين إلى القدس عام (١٠٩٩م) وما ارتكبوا فيها من مجازر مريعة؛ فبعد أن دخل الصليبيون المدينة المقدَّسة، انطلقوا إلى المنازل والمساجد يذبحون كل من صادفهم من الرجال والنساء والأطفال، وقتلوا المسلمين الذين احتموا بحرم المسجد الأقصى، وكان أحد قادة الحملة قد أمَّنهم على حياتهم، فلم يراعوا عهده، وذبحوهم وكانوا سبعين ألفاً[2].

ويعترف مؤرخو الحملات الصليبية ببشاعة السلوك الذي أقدم عليه الصليبيون، فذكر المؤرخ الصليبي ريموند صنجيل الذي شهد هذه المذابح أنه عندما توجَّه لزيارة ساحة المعبد غداة تلك المذبحة، لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء القتلى إلا بصعوبة بالغة. وكتبوا إلى البابا يفتخرون بما فعلوا، فما لامهم ولا استنكر فعلتهم[3].

وأين الكلام عن النكال والقتل الذي مارسته الكنيسة ضد المسلمين واليهود في محاكم التفتيش في إسبانيا؟!

(١) ويكفي أن تضغط على رابط: «العنف في الكتاب المقدَّس» على شبكة الإنترنت، فتنثال عليك نصوص أكثر من ذلك وأشنع.

(٢) «تاريخ الحملات الصليبية» لستيفن رانسيمان (٢/ ٤٥).

(٣) «تاريخ الحملات الصليبية» (٢/ ٤٦)، و«الكفار، تاريخ الصراع بين عالم المسيحية وعالم الإسلام» لأندرو هويتكروفت (ص ٩٧).

وهل نسي هؤلاء ما فعلوه بسكان أمريكا الأصليين من مذابح وحروب إبادة مخزية، دونوها هم على أنها بطولة يفاخرون بها، أو تاريخ يروونه ويوثقونه[1]؟!

وما فعلوه في أفريقيا حتى احتلوها، من مجازر الإبادة الوحشية، واسترقاق الأفارقة، والإبحار بهم قسراً إلى أمريكا، فيلقى في البحر كل من يلاحظ عليه ضعف أو تمرد. وكان اصطياد الرقيق من قراهم يتم بإيقاد النار في الهشيم الذي صنعت منه الحظائر المحيطة بالقرية، حتى إذا نفر أهل القرية إلى الخلاء، تصيدهم الإنجليز بما أعدوه من وسائل الاصطياد. وتم نقل مليون زنجي إلى أمريكا، مقابل موت تسعة ملايين أثناء عملية الاصطياد والشحن والنقل، وذلك في الفترة بين عامي (١٦٦١م- ١٧٧٤م)[2].

وهل نسي التاريخ حربين عالميتين كانت ضحاياهما بعشرات الملايين؟![3].

وهل نسي التاريخ التوحش النووي على هيروشيما وناجازاكي، الذي أحرق حياة الأحياء رجالاً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً؟!

وهل عميت عيونهم عما يفعله الصهاينة في فلسطين، وما فعلته القوات الأمريكية في العراق وأفغانستان؟!

ولا تزال فرنسا ترفض الاعتذار عن كل الجرائم التي فعلتها في الجزائر، وغيرها من الإبادة المليونية والتلويث النووي. ولا زال «متحف الإنسان» في باريس،

---

(١) «التاريخ الشعبي لأمريكا» لهواردزن (١/ ٩٤). وقُدِّر عدد الذين قُتلوا من سكان القارة الأمريكية الأصليين ما بين (٢٠ – ٧٠) ميلوناً. ينظر: «عصر الغلبة» لوليد نويهض.

(٢) «دائرة المعارف البريطانية» (٢/ ٧٧٩)، وينظر: كتاب «العبودية في أفريقيا» لعايدة العزب موسى.

(٣) بلغ عدد ضحايا الحرب العالمية الأولى ما يزيد على سبعة وثلاثين مليون قتيل بين مدنيين وعسكريين، وبلغ عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية من المدنيين والعسكريين قرابة ثمانين مليوناً.

يزخر بالجماجــم التــي يحتفظون بها، تحفــاً حربية، لمن أبادوهم مــن الجزائريين، وغيرهم من ثوار مستعمراتهم السابقة.

إن هذه الشناعات الإجرامية التي حملتها مراحل التاريخ وتتجدَّد اليوم، أولى بالمحاكمة والاستنكار والإدانة، ولن نُحاكم ديننا وتاريخنا إلى من تحملُ كتب دينهم وأطوارُ تاريخهم هذه الدموية والتوحش في الحروب.

ثم كيف يُعتذر عن جهاد المسلمين ضد من اعتدى عليهم في أوطانهم، مع أن دفاع الإنسان عن وطنه وماله ودينه حق عالمي أثبتته الشرائع السماوية والقوانين الأرضية، واتفقت عليه الأمم على اختلاف أجناسها وأديانها؟! وكأن المطلوب من المسلمين أن يهدوا أرضهم لكل معتد، ويسلموا خيراتهم لكل طامع، وأن يكفوا أيديهم حين يبطش بهم، ويستسلموا حين يعتدى عليهم.

ولذا فلن نقف مع هذه الفئة تبريراً ولا تعذيراً، ولن نبسط النقاش معهم، وإنما علينا أن ننقل المحاكمة إلى إرثهم المقدَّس المحرَّف، وتاريخهم الدموي الباطش الطائش.

ثانياً: وأما طرف الغلو الآخر فهم أولئك الذين جعلوا للجهاد مفهوماً ضيقاً محصوراً في القتال، ثم جعلوا القتال مشروعاً مفتوحاً يقوم به كل أحد وفي أي ظرف، وبأي إمكانات، ويمثل الأمة فيه من سبق إلى إعلانه، ورفعَ شعاره، فصار ساحة مغامرات غير محسوبة، واجتهادات غير محررة، وتهوك فيه طوائف لم يبوؤوا وحدَهم بمغبة تعجلهم ولكن جرجروا معهم شعوباً أقحموها في معركة لم تستعد لها، وأقحموها في ورطات ومهالك أشد من التي حاولوا دفعها عنها.

ولا شك أن الحامل على هذا التعجل عند كثيرين مرارة الظلم، وألم البغي، وشدة نكاية العدو، حتى ظن كثيرون أن الخيار انحصر في المواجهة على أي حال كانت وبأي نتيجة كانت.

وإلى هؤلاء سيكون الحديث، ومعهم الحوار، عسى أن نقترب من وسط الاعتدال، ولا ندعي قبل ولا بعد إصابة الحق، ولكن نجتهد في تحريه جهدنا، ونسأل الله أن يهدينا لأرشد أمرنا وأحبه إليه.



لمن هذه الورقات؟

هذه الورقات ليس فيها عمق البحث الأكاديمي ولا تقعيده وتعقيده، فإنَّ ما حرصتُ عليه فيها هو الوضوح والسهولة في الطرح؛ ولذا جعلتُ الكلام فيها واضحاً سهلاً، وجمعتُ فيه بين الأدلة الشرعية، ومراعاة مقاصد الشريعة، والموازنة بين المصالح والمفاسد.

وفي الساحة العلمية كتب متينة، رصينة، موسعةُ البحثِ، معمقةُ التأصيلِ، مثل: «فقه الجهاد» للشيخ القرضاوي، و«الجهاد والقتال في السياسة الشرعية» لمحمد خير هيكل، وغيرها. وهي كتب ضخمة، بل موسوعات علمية. ويقيني أن من تأهل للقراءة فيها، فإن لديه من البصيرة العلمية للنظر ومعرفة الحق والوصول إليه ما يكفيه ويغنيه. وليست هذه الفئة مقصودة في هذه الرسالة، فهم كما قال ﷺ عن الإبل في الصحراء: «**مَالَكَ وَلَهَا؟ مَعَهَا حِذَاؤُهَا وَسِقَاؤُهَا تَرِدُ الْمَاءَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ**»[1].

(١) «صحيح البخاري» (٢٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٢٢).

ولكني كتبتُ هذه الورقات خطاباً أُوَجّهه لأبنائي الذين يعيشون آمالاً سماوية، تتلهف قلوبهم إلى لقاء الله على ما يرضيه، وتتشوق نفوسهم إلى عز الإسلام وعزَّة المسلمين، ويعيشون حُرُقَاتِ الألم، وغَبنَات الضيم على مآسي المسلمين، ويرون ما يتعرض له إخوانهم من ظلم وطغيان، وبطش وعدوان، فيستثير ذلك فيهم الغيرة، ويوقد الحمية، فيبيتون يتقلبون على جمر المواجع، ويتجرعون غصص الألم، فإذا رأوا فرصة للدفع والمواجهة طاروا إليها بآمال الجهاد وأشواق الشهادة، عسى أن يَشْفيَ الله صدورهم ويذهبَ غيظ قلوبهم، بالنكاية بالعدو الذي طالما أنكاهم، أو أن تحلق أرواحهم في سماوات الشهادة، وتطير في آفاق الجنة، وتأوي إلى قناديل العرش، وما أقصر الدنيا وأهونها إن كان المنقلب بعدُ رضا الرحمن في نعيم الجنان!

إلى أرواح شباب كنا نعرفهم ونرى وجوههم النضرة تضيء مساجدنا وطرقاتنا، ثم فقدناهم فسألنا عنهم فإذا هم قد فقدتهم الحياة، وقضوا نحبهم مُعَفَّري الوجوه، قد سالت دماؤهم، وتناثرت أشلاؤهم على تراب أفغانستان والشيشان والعراق وسورية وغيرها.

فقد كانوا متوثبين كلما سمعوا هيعة طاروا إليها، يبتغون الموت، طمعهم في الدنيا قليل، ورجاؤهم في الآخرة كبير.

دخلوا لهوات الموت وهم يرونه أقصر طريق إلى الجنة، وإنما هي الشهادة ثم تتلقاهم ملائكة الرحمة، وما إن يشخص البصر حتى يرى الجنة و﴿**مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾.

هكذا كان يقينهم، وهذه كانت آمالهم ورجاءاتهم.

ولا زالت هذه السوق قائمةً فالأسباب تتكرر، والمثيرات المستفزة تتوالى، والأفواج من الشباب تتتابع إلى هذا المهيع، ثم يقضي كلٌّ نحبه، وكأنما نثار دمائه ينادي من بقي من رفاقه: إني هاهنا أنتظركم على عتبات الجنة فحيهلا هَلمُّوا.

فيتواثبون في أَثَره، ويُلْقِي كل منهم ما في يده، ولسان حاله يقول: لئن عشت حتى أقضي حاجتي هذه إنها لحياة طويلة.

وتساءل من تساءل بعد ما رأينا رماد الآمال، وعواقب هذه المقاتل، دماءَها ودمارَها وخسارَ عاقبةِ أمرها، وبعد أن فقدنا بفقدهم نفوساً صادقة في عهدها، سخية في عطائها: أما كانت الأمة أحوج ما تكون إلى هذه النفوس بصدقها وبذلها في صناعة حياتها عطاءً ونماءً وبناءً وإحياءً؟!

وكنا نتساءل: ماذا لو أن هذه النفوس بعزمها وصدقها وتضحيتها أعطت في مجالات البناء والإصلاح والدعوة، وأوقفت بقية أعمارها لله في عمل مثمر رشيد، يبني ولا يهدم، ويجمع ولا يفرق، ويحفظ ولا يضيع؟!

واليوم وقد نسأ الله في آجالنا، فرأينا تتابع هذه المعارك والمهالك وما أثمرت، رأينا بداياتها ثم رأينا عاقبة أمرها، وهشيم حصادها، ورأينا كيف تبخرت مكاسبها الموهومة والمدَّعاة، وبقيت النتائج الكارثية التي لا نزال نَرتِقُ فتقها، ونتجرع مُرَّها.

وصار الواجب متعينا على من رأى حق الحقيقة أن يقولها ويعلنها، ويصدع بما يدين الله به من الحق، وأن يلقى الله بريء الذمة أن يكون كتم علماً أو سكت عن حق، وأن لا تأخذنا هيبة العامة، ورعاية مشاعر الشباب وعواطفهم أن نصدقهم، ونقول بالحق الذي نعتقده لهم، فما بقي من بقية العمر لا يتسع للمواربة والمداهنة والمداراة، وما بقي من عافية الأمة لا يحتمل مزيداً من تعميق الجراحات وتكرار الأخطاء، والرجوع

في كل مرة إلى النقطة الصِّفْرية وكأنها التجربة الأولى، حتى لُدغنا من جحر واحد مرات ومرات، و المؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين.

ولذا فالذي ندين الله به أن علينا أن نمسك بِحُجَزِ أبنائنا حتى لا يتقحموا المهالك، ويجروا على أمتهم الكوارث، وإني لأتذكر ما قاله سيدنا جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد خطب في جامع البصرة ونَصَح ثم قال: إِنِّي أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقُلْتُ: أُبَايِعُكَ عَلَى الإِسْلَامِ، فَشَرَطَ عَلَيَّ: «**وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ**». فَبَايَعْتُهُ عَلَى هَذَا، وَرَبِّ هَذَا المَسْجِدِ إِنِّي لَنَاصِحٌ لَكُمْ [1].

وأقول اليوم كما قال جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ورب البيت المعظم أني أكتب الآن ما كتبت، وأقول ما قلت وأنا صادق ناصح لكلِّ ابن من أبنائي يقرأ كلامي، فهو كلام الأب الشفوق الذي تَحرَّى الحق ما وسعه التحري، واجتهد ما وسعه الجَهْد، ولم يألُكم صدقاً ولا نصحاً، سائلا الله أن يهدينا للتي هي أقوم، وأن يرينا الحق حقّاً ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.



(١) «صحيح البخاري» (٥٨)، و«صحيح مسلم» (٥٦).

هدف الجهاد

إن أمراً بهذه الخطورة يُتَقَحَّم على كرهٍ من النفوس، لِتُزهق فيه الأرواح، وتُسفك الدماء، لا يمكن أن يشرع للناس إلا وهدفه واضح فلا غموض، وطريقه لاحِبٌ فلا التواء.

ولذا جاءت هدايات إمام المجاهدين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تُوضِّح هذا الهدف بجلاءٍ ونصاعةٍ إلى حد التألق، صيانة لهذا الهدف من اللبس أو الالتباس.

فجاء بيانه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ واضحاً ساطعاً، وحاسماً قاطعاً في بيان الهدف الحقيقي للجهاد، ورد الأهداف الملابسة والملتبسة، ونفيها أن تصاحب الهدف الأصلي فضلاً أن تكون هي الهدف المقصود، أو الباعث المحرك.

جاء ذلك في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ»[1].

(١) «صحيح البخاري» (١٢٣)، و«صحيح مسلم» (١٩٠٤). وهذا الهدف المجمل، ويمكن تفصيله إلى أقسام ترجع إليه.

إذن فالجهاد هو القتال الذي يُقصد به إعلاء كلمة الله، ويَترتب عليه تحقيق ذلك. فإذا صاحبه هدف آخر، أو كانت نتيجته غير ذلك، فليس مشروعاً ولا مأموراً به، وليس في سبيل الله، بل في سبيل مرادات أخرى، وأهدافٍ صغيرة محركة أو مصاحبة.

ويتضح ذلك من سياق الحديث؛ فإن النبي ﷺ ذكر هذه القاعدة المحدِّدة للهدف الشرعي من الجهاد جواباً على أسئلة متعددة حول أهداف أخرى ملابسة لهذا الهدف.

ففي رواية أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضباً، ويقاتل حميَّةً.

وفي رواية أخرى: الرجل يقاتل للمغنم.

وفي رواية: والرجل يقاتل للذكر، أي ليُذكر بين الناس ويشتهر.

وفي رواية: ويقاتل ليُرى مكانه.

وفي رواية: يقاتل شجاعة؟

وفي رواية: ويقاتل رياءً[1].

فاجتمع من رواياتهم خمسة أسباب: طلب المغنم، وإظهار الشجاعة، والحمية، والغضب، والرياء[2].

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٨١٠)، و«صحيح مسلم» (١٩٠٤).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (٦/ ٢٨).

فلم يجب ﷺ عن أيٍّ مِنْ ذلك بالإثبات ولا بالنفي، ولكن أجاب بهذه القاعدة الجامعة المانعة المحدِّدة بوضوح للهدف، والنافية لأي أهداف أخرى تنبعث معه أو تصاحبه.

وكان ﷺ واضحاً وحاسماً في تحديد الهدف وتنقيته مما يشوبه من مرادات النفوس، فعن أبي أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ، مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا شَيْءَ لَهُ**». فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا شَيْءَ لَهُ**». ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**»(١).

ولذا فإن أي قتال يُبْتدأ به ونتيجته عُرضةٌ ألا تحقق هذا الهدف وهو إعلاء كلمة الله، فليس هو في سبيل الله، بل في سبيل مرادات صغيرة من أهواء النفوس وشهواتها كالغضب والحمية والتشفي والذكر ونحوها.

والتحقق من إحراز هذا الهدف ليس برفع ستور الغيب لمعرفة النتائج، ولكن بقراءة الواقع، واعتبار الأسباب والسنن الجارية لمعرفة العواقب.

فالجهاد مبني على المصلحة استدلالاً وتقييداً، والمصلحة تتضمن تحصيل المصالح واجتلابها، ودرء المفاسد واجتنابها، وتقدير درجات المصالح والمفاسد، وأن كل ما غلبت مصالحه مساوئه فهو مطلوب في الشرع، وكل ما غلبت مفاسده فهو مذموم في الشرع.

---

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (٤٣٣٣)، وقال الحافظ: إسناده جيد، «فتح الباري» (٦/ ٢٩).

قال ابن تيمية: والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، والنبي ﷺ دعا الخلق بغاية الإمكان، ونقل كل شخص إلى خيرٍ مما كان عليه بحسب الإمكان، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[(١)].

وما كان مبناه النظر المصلحي لا بد عند تفعيله ألا يعود على المصلحة المقصودة بالإبطال، لا باعتبار وجود مفسدة أكبر منها، ولا باعتبار تفويتها لمصلحة أهم منها، ولا باعتبار تقاصرها عن تحقيق المصلحة المقصودة منها.. فهذه ثلاثة ملاحظ يراعى اعتبارها عند النظر في المصلحة المترتبة على أي مواجهة[(٢)].

فإذا كانت هذه المواجهة تؤدي إلى إغراء العدو بمزيد من البطش والنكاية بالمسلمين، وتعريض المدنيين والمستضعفين إلى خطر الإبادة والتشريد، وتحويل المسلمين إلى جثث وأشلاء، وقطعان من المشرَّدين الهائمين، والمهجرين والمطاردين، وتحويل ديارهم إلى ركام ودمار، فهل يمكن أن نصف هذا كلَّه بأنه إعلاء لكلمة الله؟

وهل شرع الجهاد لحفظ النفوس أم لإفنائها؟!

وهل المجاهدون من أمة محمد ﷺ مجموعة من الشاردين الهاربين في الصحاري، أو المختبئين في الكهوف، يتعبدون لَربِّهم بحرب العالم كله، ويتقربون إليه بعدد الرؤوس التي يقطعونها، والحرائق التي يشعلونها؟!

ولعدم تحرير الهدف من الجهاد صار القتال هدفاً بحد ذاته، وكأن الجهاد للموت لا للحياة، وللخراب لا للعمران.

---

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٣/ ٩٦).

(٢) باختصار من مقال: «ضوابط في تنزيل أحكام باب الجهاد الفقهية على الواقع» للشيخ هاني الجبير، مجلة البيان (٣٢٤).

إن الجهاد ليس فكرة خلاصية من الحياة، ولكنه فكرة إحيائية بنائية، لحفظ النفوس وإحيائها، ورفع كلمة الدين وإعلائها، كما أن رسالة النبي ﷺ كُلَّها رسالة حياة وإحياء: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾.

وإن الشهادة ليست أقصر طريق إلى الجنة، فسيد الخلق ﷺ مات على فراشه، والعشرة المبشرون بالجنة ماتوا على فرشهم أو قتلوا غيلة.

وإن التباس هذا الهدف، وتجاهل النتائج والإعراض عن دراستها، وعدم اعتبار المآلات المتوقعة، وحجبها بالأماني الموهومة، كل ذلك لا يكون إلا بوجود مرادات نفسية وشهوات خفية، وهي ما يحجب الرؤية ويصرفها عن النظر الواقعي إلى الأماني المتخيلة.

ولذا فإن تجلية هذا الهدف، وتمحيص مرادات النفوس ودوافعها ودراسة النتائج المتوقعة، والمآلات المنتظرة، وتطابقها مع هذا الهدف ومدى تحقيقها له مما ينبغي الوقوف عنده طويلاً قبل إقرار القرار، وتحريك الخطوة الأولى.

كما أن تجريد العمل من اتباع الهوى يحتاج إلى علم وبصيرة، ومكابدة شديدة، ولكن العقبى هي جنة المأوى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾.

وإن الهوى لا يأتي دائماً بصورة الذنوب والفواحش، ولكنَّ أخطر الأهواء ما تسلل إلى النفس متلبِّساً ثوب التَّدين والعبادة، فَيَلِجُّ الإنسان فيه وهو يظن أنه يعبد ربه وهو إنما يعبد هواه، وما أعجب ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه، ظانةً أنها تفعله طاعة لله[1]!

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٠٧).

وليس اتباع الهوى في الترخص دائماً، بل قد يكون في التشدد والمبالغة والغلو. وقد يكون تقحم القتال شهوة، فهناك من شهوته المغامرة والمخاطرة، وهذه الشهوة توجد في المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وربما يُلبسها بعض المغامرين لبوس الدين.

إن الجهاد ليس غَايةً يُنتهى إليها، ولكنه وسيلة لغاية وهي إعلاء كلمة الله حين لا تتحقق إلا به، ولأنه ليس هدفاً مقصوداً لذاته وإنما لغايته، فها هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في أحد أيامه التي لقي فيها العدو وذلك في غزوة الخندق انتظر حتى زالت الشمس ثم قام في أصحابه فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ**»[1].

فأن يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هذا القول، وهو في حال استنفار قتالي، أمام عدو معتدٍ يحاصر المدينة ويحاول اقتحامها، يبين لنا أن القتال ليس أمنية نسعى إليها، بل السلامة منه عافية نسأل الله إياها.

ولكن إذا تحقَّقت دواعي القتال الحقيقية، وصار هو الوسيلة المتعيَّنة لتحقيق الغاية صرنا إليه صابرين؛ «**فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا**»[2].

ولما قيل لابن عمر أيام ابن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُم: مالك لا تقاتل، ألم يقل اللهُ: ﴿**وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾؟ فقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله[3].

ونقول اليوم كما قال ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: فكم من قتال باسم الجهاد جر على الأمة فتناً وليس فتنة واحدة، وأعقب كوارث وليس كارثة واحدة.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، و«صحيح مسلم» (١٧٤٢).
(٢) تكملة الحديث السابق.
(٣) «صحيح البخاري» (٤٥١٣). و«صحيح مسلم» (٩٦) من قول سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وما أروع ما قال العالم المتبصر الذي استقرأ السنن الكونية ببصيرة قرآنية، قاضي المالكية الفقيه المحدث عبد الرحمن بن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال في «مقدمته»: ومن هذا الباب أحوال الثّوّار القائمين بتغيير المنكر من العامّة والفقهاء، فإنّ كثيراً من المنتحلين للعبادة، وسلوك طرق الدّين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنّهي عنه، والأمر بالمعروف رجاء في الثّواب عليه من الله فيكثر أتباعهم والمتلثلثون[(١)] بهم من الغوغاء والدّهماء، ويُعرّضون أنفسهم في ذلك للمهالك، وأكثرهم يهلكون في هذا السّبيل مأزورين غير مأجورين؛ لأنّ الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم، وإنّما أمر به حيث تكون القدرة عليه، قال ﷺ: **«مَنْ رَأَى مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»**[(٢)].



(١) أي: اتباعهم والمترددون معهم. ينظر: «تاج العروس» (٥/ ٣٣٩-٣٤٠).

(٢) «صحيح مسلم» (٤٩)، و«مقدمة ابن خلدون» (١/ ١٩٩)، و«ابن خلدون إسلاميّاً» لعماد الدين خليل (ص ٣٦).

شرائع الجهاد

عند النظر إلى شعيرة الجهاد، فإن علينا النظر إلى الأحوال المحيطة به والمؤثرة في أحكامه التي إذا تغيرت تغير الحكم تبعاً لها، كشأن غيره من الأحكام التي يؤثر تغير الزمان وأحواله والأوصاف المؤثرة في الحكم بتغير الفتوى فيها، وقد حرَّر هذا المعنى الإمام ابن القيم، فقال:

فصل في تغير الفتوى، واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد:

هذا فصل عظيم النفع جدّاً، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه، ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به؛ فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث؛ فليست من الشريعة وإن أُدخلت فيها بالتأويل،

فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها[١].

ثم ذكر ابن القيم أمثلة تفصيلية كثيرة لذلك.

وأحكام الجهاد هي من هذا النوع أيضاً، فيؤثر تغير الأحوال والظروف فيها، ويتضح ذلك بتصور ظروف القتال عند تشريع الجهاد، والأسباب الداعية إليه، والحال العالمية في ذلك الوقت، ثم ما يطرأ بعدُ على هذه الأسباب من تغير، وعلى هذه الحال من تطور، وإذا تغيرت الأسباب تغيرت نتائجها تبعاً لذلك.

قال ابن القيم: ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات، حتى يحيط به علماً.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع[٢].

فإذا نظرنا إلى الوضع العالمي زمن بعثة النبي ﷺ وعند فرض الجهاد وأحكامه، **رأينا أنه يكتنفه أمران مهمان مؤثران في الحكم وجوداً وعدماً:**

أولاً: أن الوضع العربي خاصة والعالمي عامة كان يقوم على استتباع الناس في الديانة لدين الملوك والزعماء والقبائل، ولا يسمح لهم بالخروج على دين الملوك، أو الدين السائد للملأ والزعماء القبليين.

---

(١) «إعلام الموقعين» (٤/ ٣٣٧).

(٢) «إعلام الموقعين» (٢/ ١٦٥).

ولذا وجدت المواجهات العدائية لدعوات الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ فأُلقي إبراهيم في النار، وصُلب سحرة فرعون لما آمنوا، واتَّبع فرعونُ بني إسرائيل ليقتلهم فأغرقه الله، وأحرق الملك ذو نواس[1] أصحاب الأخدود لما آمنوا، وفتنت قريش من آمن من السابقين الأولين حتى هاجروا فراراً بدينهم.

وهكذا كانت الإمبراطورية الرومانية تحمل الناس على دينها وعلى مذهبها في هذا الدين؛ ولذا امتُحن نصارى مصر حتى يكونوا على مذهب نصارى بيزنطة، وهرب قسسهم إلى صعيد مصر فراراً بعقيدتهم.

ولما كاتب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هرقل قال له: «فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ»[2]، وهم رعيته المتبعون لدينه.

فشرع الجهاد لرفع الظلم عمن آمن: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

إن هؤلاء إنما استضعفوا واضطهدوا ووقع الظلم عليهم بسبب إيمانهم، فشرع الجهاد لحماية الناس من الفتنة في دينهم، ورفع الظلم عنهم بسبب دينهم.

فكان من آمن عرضة للإيذاء والفتون، فشرع القتال لتخليصهم من ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، أي: حتى لا يفتن أحد عن دينه، ويكره على مخالفته.

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٨٣)، و«فتح الباري» (١١/ ٦٥٠).
(٢) «صحيح البخاري» (٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٣).

وقد استمر هذا الوضع منذ بعثة النبي ﷺ وإلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، على تفاوت في ضراوة العدوان وشدة الفتون. فما جرى في محاكم التفتيش في إسبانيا والاستعمار الأوروبي لقارة أمريكا والقارة الأفريقية، هو الصورة الصارخة الفاضحة، وقد يخفت ذلك أو يشتد باختلاف الزمان والمكان.

فإذا تغيرت هذه الحال، وكُفِلَت حرية الدعوة والتدين للأفراد من غير هيمنةٍ من الحكومات أو الأغلبية المسيطرة، تغير تبعاً لذلك الحكم المتعلق بها.

ثانياً: أن الوضع العالمي قديماً كان يقوم على تمدد الأقوياء، واستضعاف الضعفاء؛ ولذا لم تكن هناك حدود سياسية مستقرة للدول، وإنما تتمدد حدودها وتنكمش حسب قوتها وضعفها. وتقف حدود كل دولة حيث يقف جيشها.

ولذا كان النظام العالمي أن مَن لم يَغْزُ يُغْزَ، ومَن لم تمنعه قوته طَمِعَ فيه مَن هو أقوى منه، وكانت دولة المسلمين كغيرها عرضة لأطماع الطامعين، وما حقبة الاستعمار المباشر عنا ببعيد.

فكان العالم في ذلك الظرف يعيش حالة استنفار قتالي لكل الدول والأمم.

ولذا شرع الجهاد لصد العدوان الواقع أو المتوقع: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾، ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾.

واستمرت هذه الحال إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، وقيام هيئة الأمم المتحدة، والاعتراف بالحدود السياسية بين الدول صغيرها وكبيرها، وقويها وضعيفها، وصار الاستقرار والسلام العالمي هو السائد غالباً بين الدول، وصارت الحروب في بؤرٍ محدودة، وظرفاً استثنائياً من الحالة العالمية العامة.

فإذا تغير الوضع العالمي وحفظت حدود كل دولة وحقوقها بمواثيق دولية، واتفاق عالمي عام، فإن هذا التغير في الحال يتبعه تغير في الحكم المتعلق بها، كما قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾، والوضع العالمي في مجمله اليوم هو حال تعازل وتتارك.

ولذا فإن تنزيل أحكام الجهاد تراعى فيه الأوصاف والأحوال المؤثرة في الحكم؛ فلا يطبق حكم حالة على حالة أخرى تخالفها.



استشكال حديث: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ»

اشتهر إثارة استشكالٍ حول قوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ** عَزَّوَجَلَّ»[1].

وخلاصة الاستشكال أن ظاهر الخبر أن النبي ﷺ أخبر أنه أُمر بمقاتلة الناس، ولا ترتفع هذه المقاتلة عنهم، حتى يعلنوا شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. وأما قبل ذلك، فهو وأتباعه مأمورون بمقاتلتهم، وهم مستحقون للمقاتلة على ذلك. وقد تعددت الإجابات عن هذا الاستشكال، **ومن أشهرها وأكثرها تداولاً**:

١- تأويل القتال المذكور في قوله: «**أُقَاتِلَ**» بأنه مقاتلة، وهي مفاعلة بين اثنين، فكأنه يقول: أمرت أن أقاتل من يقاتلني، ولذا قال: «**أُقَاتِلَ**» ولم يقل: أقتل، فهو أمر بمقاتلة المعتدي المقاتل.

(١) «صحيح البخاري» (٦٩٢٤، ٧٢٨٤)، و«صحيح مسلم» (٢٠).

وهذا الجواب لا يرفع الإشكال؛ لأنه لو كان المقصود به مقاتلة المعتدي، لم يقل: «**حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، وإنما يقول: حتى يكفوا عدوانهم.

٢- تأويل لفظ الناس في قوله: «**أُقَاتِلَ النَّاسَ**»، بأن المقصود بالناس عام أريد به الخاص، وقالوا: المراد بالناس مشركو مكة أو جزيرة العرب.

وفي هذا الجواب إشكال أيضاً؛ إذ لا معنى لتخصيص مشركي جزيرة العرب بهذا الحكم، كما أنه لم يرد أن النبي ﷺ قاتلهم ليحملهم على قول لا إله إلا الله، فقد وادع يهود المدينة حين دخلها، ووادع القبائل المشركة حول المدينة كبني مدلج وبني ضمرة أن لا يقاتلوه ولا يقاتلهم. ثم لو كان الأمر خاصاً بجزيرة العرب لقال: أقاتلهم حتى يخرجوا منها، كما قال: «**أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**»[(١)]، ولم يقل قاتلوا المشركين في جزيرة العرب.

بل اختار فريق من العلماء أخذ الجزية من المشركين في جزيرة العرب، كما تؤخذ من اليهود والنصارى والمجوس[(٢)].

والراجح -والله أعلم- في الجواب عن الاستشكال أن يقال: إن سبب هذا الاستشكال الظاهري هو عدم تصور الظرف الزماني لحديث النبي ﷺ، وعدم تتبع بقية النصوص المتعلقة بموضوعه، حتى يَتكوَّن من مجموعها فهمٌ متكامل للحديث، مؤتلفٌ مع غيره من النصوص الشرعية والوقائع النبوية.

ولذا فإن هذا الحديث لم يكن مشكلاً عند العلماء المتقدِّمين، ولم يتكلَّفوا الجواب عنه، ولم يقفوا أمام دلالته في مأزق، وإنما كانوا يشرحونه بوضوح، واسترواح، ومن غير

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٥٣، ٣١٦٨، ٤٤٣١)، و«صحيح مسلم» (١٦٣٧).

(٢) «زاد المعاد» (٢/ ١٦٨).

استشكال لمعناه، ولا تعسف في تأويله. ولذا لم يذكره ابن قتيبة في «مشكل الحديث»، ولا الطحاوي في «مشكل الآثار»، ولا ابن الجوزي في «مشكل الصحيحين»، ولم يستشكله شُرَّاح الحديث.

وذلك لأن الظرف العالمي الذي قيل فيه الحديث بقي مستمراً مشهوداً وشارحاً للمراد منه. وكان العلماء المتقدمون يشرحون الحديث، وكأنهم مع النبي ﷺ في زمانه وحاله؛ لأن الحال باقية على ذات الوضع الذي قيل فيه الحديث، فكان الوضع العالمي شارحاً لسبب الحديث، وبقيةُ النصوص الشرعية موضحةٌ لمعناه، فلا إشكال ولا استشكال.

وتفصيل ذلك بتوضيح سبب الحديث، ثم دلالته ومعناه، وبذا يتضح المعنى ويزول الإشكال.

أما سبب الحديث العام، فهو ما سبق ذكره من أن الوضع العربي والعالمي بعامة، كان يقوم على استتباع الناس في دينهم لملوكهم وزعمائهم وقبائلهم. وكل من خرج على دين الملوك أو الزعماء أو القبائل، تعرض للقتل أو للاضطهاد. ولم يكن شرك المشركين، ولا نصرانية النصارى، ولا مجوسية المجوس قناعة شخصية عند كل متدين بها، ولكنها كانت الخيار الأوحد الذي لا يستطيع اختيار غيره؛ لأنه دين الإمبراطورية أو الزعماء أو القبيلة، ولا يسمح له الخروج عنه إلى غيره.

كما جرى لنبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع النمرود، والسحرة مع فرعون، وأصحاب الأخدود مع ملكهم، والنبي ﷺ وأصحابه مع قبيلتهم.

فكان اختيار الدين قناعة وتديناً وإيماناً قلبيّاً مصادراً، ولم يكن العامة يملكون حق اختيار الدين الذي يدينون لله به. وكان هذا القانون الإمبراطوري أو الملوكي أو القبلي، هو ما يحول بين الناس وبين شهادة أن لا إله إلا الله.

فأُمر النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالقتال لرفع هذا الظلم الذي يحول بين الناس وخيارهم الإيماني؛ حتى يتمكن الناس من تقرير خيارهم الإيماني فيقولوا: لا إله إلا الله، آمنين غير خائفين ولا مستضعفين، إذا اختاروها قناعة وإيماناً.

وكان ظلم الملوك أو الزعماء أو القبائل، هو الذي يحول بين الناس وبين اختيارهم التوحيد على الشرك، ويمنعهم من قول لا إله إلا الله إذا أرادوا قولها.

فبيَّن صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن الواجب عليه وعلى أتباعه إلى يوم القيامة، إزالة هذا الظلم، وهو إكراه البشرية على الكفر، وسلبهم حقهم في اختيار دينهم بقناعتهم، ومنعهم من شهادة أن لا إله إلا الله التي يؤمنون بها.

وإذا عرف السبب اتضح المعنى، فيكون معنى قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**». أي يتمكنوا من قولها إيماناً واختياراً بلا خوف من أحد يمنعهم من قولها. وليس معناه أن يقاتلوا حتى يتلفظوا بشهادة أن لا إله إلا الله.

والذي يوضِّح هذا المعنى ويؤكِّده بقية النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، ووقائع السيرة النبوية، وسيرة الخلفاء، وكلام الأئمة العلماء.

قال تعالى: ﴿**لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ**﴾، وقال تعالى عن الكفار: ﴿**فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا**﴾.

وثبت ارتفاع التكليف عند الإكراه: ﴿**إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ**﴾؛ فكما لا يقع كفر تحت الإكراه، فلا يصح إيمان تحت الإكراه.

ولم يقع طوال حياة النبي ﷺ أن أحداً أُكره على شهادة أن لا إله إلا الله تحت تهديد القتل، ولا أن الناس كانوا يعرضون على السيف؛ إما أن يؤمنوا أو يقتلوا.

وإنما كان الإيمان اختياراً واقتناعاً، لا عسفاً وإكراهاً.

ومن أوضح الشواهد على ذلك:

أ- حديث غَوْرَثِ بن الحارث الذي أتى إلى النبي ﷺ، وهو نائم في ظل شجرة، وقد تفرق عنه أصحابه، فاخترط السيف، ثم قال لرسول الله ﷺ: مَن يمنعك مني؟ فقال النبي ﷺ بوثوق وقوة: «**اللهُ**». فارتعب، وسقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ، وقال له: «**مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟**». فقال: يا محمد كن خير آخذ، فقال: «**أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟**». قال: لا، ولكن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله[١].

لقد خلى ﷺ سبيله مع أنه أبى أن يقول: لا إله إلا الله، وكلُّ الذي شرطه عليه، أن لا يبدأه بالعدوان، ولا يعين معتدياً عليه.

ب- وعندما أسرت فرقة من جيش رسول الله ﷺ أحد أعدائه، وهو ثُمامة بن أُثال، ربطه في سارية المسجد ثلاثة أيام؛ حتى يتعرَّف على الإسلام، ويعرف حال المسلمين. ثم أمر أن يُخلى سبيله، من غير أن يطلب منه شهادة أن لا إله إلا الله، أو يعرضها عليه، فضلاً أن يتهدده إن لم يقلها. وكان ذلك سبباً في قناعة ثُمامة بالدين، ودخوله في الإسلام طوعاً لا كرهاً، ورغبة لا رهبة.

ج- وعندما أسر ﷺ سبعين من مقاتلي قريش في معركة بدر، لم يعرضهم على السيف، فمَن قال: لا إله إلا الله تركه، ومَن أَبَى قتله. وإنما أمر أصحابه بالإحسان إليهم،

(١) «صحيح البخاري» (٢٩١٠، ٢٩١٣، ٤١٣٥)، و«صحيح مسلم» (٨٤٣).

وعفا عن بعضهم، وأخذ الفداء من بقيتهم، ولم يقتل منهم إلا رجلين، هما من زعماء العدوان ومجرمي الحرب؛ ولذا أسلم أكثر هؤلاء الأسرى بعد ذلك.

قال ابن الصلاح: إن الأصل هو إبقاء الكفار وتقريرهم؛ لأن الله تعالى ما أراد إفناء الخلق، ولا خلقهم ليقتلوا، وإنما أبيح قتلهم لعارض ضرر وجد منهم، إلا أن ذلك ليس جزاء لهم على كفرهم، فإن دار الدنيا ليست دار جزاء، بل الجزاء في الآخرة[١].

وقال ابن تيمية: قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾، هذا نص عام: أنا لا نكره أحداً على الدين، فلو كان الكافر يقتل حتى يسلم، لكان هذا أعظم الإكراه على الدين[٢].

وقال ابن القيم: من تأمل سيرة النبي ﷺ، تبين له أنه لم يكره أحداً على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله. وأما من هادنه، فلم يقاتله ما دام مقيماً على هدنته، لم ينقض عهده، بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡ﴾. ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم، فلما حاربوه، ونقضوا عهده، وبدأوه بالقتال، قاتلهم... وكذلك لما هادن قريشاً عشر سنين، لم يبدأهم بقتال حتى بدأوا هم بقتاله، ونقضوا عهده، فعند ذلك غزاهم في ديارهم، وقبل ذلك كانوا هم يغزونه[٣].

إن هذه النصوص والوقائع تدل على أن معنى الحديث: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، أي: يتمكنوا من قولها قناعة وإيماناً، ويكون لهم الخيار الكامل في قولها، وإزالة كل قوة ظالمة تمنعهم من قولها إذا اختاروها.

---

(١) «فتاوى ابن الصلاح» (٢/ ٢٦).

(٢) «قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرد كفرهم» (ص ١٢١).

(٣) «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» (١/ ٢٣٨)، وينظر: «فقه الجهاد» (ص ١٠٠٩).

والحديث بهذا المعنى محكم غير منسوخ.

وينبغي أن يفتخر المسلم أن هذه رسالة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأتباعه، وهي رفع الظلم عن الناس، ومنحهم حريتهم، وإزالة ما يمنعهم عن خيارهم الإيماني.



الجهاد النبوي

لم يعبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدعوته إلا بعد أن سلك بها طريقاً شائكاً تعترضه العداوات والمكائد، ولا يمكن لصاحب دعوة مهما كان مسالماً أن يبقى سالماً من عداوة من يخالفون دعوته.

وليس أرفق وأوفق في الدعوة من أنبياء الله ورسله ومع ذلك اعترضهم الأعداء بالمكائد وواجهوهم بالعدوان: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

ولذا فإن المواجهة مع العداوات الظالمة الباغية متكررة في أغلب الدعوات.

ولمواجهة هذه العداوات طرق ووسائل تتنوع بحسب حال الداعي ومن يعاديه، ومن ذلك ما يلجئ إلى مواجهة قتالية تزهق فيها النفوس وتسفك الدماء حينما يكون هذا هو الحل الأمثل لصد العدوان.

وكان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في جهاده هديه وهداه، ونقف مع الجهاد النبوي في بصائر، **منها**:

أولاً: سعة مفهوم الجهاد النبوي؛ فإن الجهاد بمعناه العام قد بدأ في بداية الدعوة، فأنزل الله على رسوله: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾، وهي آية مكية، فبدأ الجهاد الكبير في مكة.

والجهاد بمعناه الواسع يشمل الجهاد بالقرآن بلاغا ودعوة وبياناً، ويشمل جهاد النفس، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين، وجهاد الشيطان.

فكان جهاد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جهاداً بهذا المعنى العام الواسع استغرق ثلاثاً وعشرين سنة من عمره الطيب المبارك، أما إذا اختصرنا الجهاد في القتال فإن أيام قتال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ معدودة.

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يفتح آفاق هذا المعنى لأصحابه ويبين لهم سعة معنى الجهاد، فقد مر به وهو مع أصحابه شاب جلد قوي يسوق غنماً له فأُعجب الصحابة بقوته، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله لكان خيراً، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهو يمد أبصارهم إلى معنى واسع للجهاد: «**إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَاراً فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[1].

فبين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن سعيه على ولده الصغار وأبويه، وعلى نفسه، من الجهاد في سبيل الله.

وَعَنْ أَبِي طُلَيْقٍ: أن امرأته رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ لَهُ -وَلَهُ جَمَلٌ وَنَاقَةٌ-: أَعْطِنِي جَمَلَكَ أَحُجُّ عَلَيْهِ. قَالَ: هُوَ حَبِيسٌ فِي سَبِيلِ اللهِ. قَالَتْ: إِنَّهُ فِي سَبِيلِ الله أَنَا أَحُجُّ عَلَيْهِ. قَالَتْ: فَأَعْطِنِي النَّاقَةَ وَحُجَّ عَلَى جَمَلِكَ. قَالَ: لَا أُوثِرُ عَلَى نَفْسِي أَحَداً. قالت: فأعطني من نفقتك. قال: فقلت: مَا عِنْدِي فَضْلٌ عَمَّا أَخْرُجُ بِهِ وَلَوْ كان معي لأعطيتك. قالت: فإن

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (١٩/ ١٢٩) (٢٨٢).

فعلت ما فعلت فأقرئ نبي الله مِنِّيَ السَّلَامَ إِذَا لَقِيتَهُ، وَقُلْ لَهُ الَّذِي قُلْتُ لَكَ. فَلَمَّا لَقِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْرَأَهُ مِنْهَا السَّلَامَ وَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي قَالَتْ لَهُ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**صَدَقَتْ أُمُّ طُلَيْقٍ، لَوْ أَعْطَيْتَهَا جَمَلَكَ كَانَتْ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَوْ أَعْطَيْتَهَا نَاقَتَكَ كَانَتْ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَوْ أَعْطَيْتَهَا مِنْ نَفَقَتِكَ أَخْلَفَهَا اللهُ لَكَ**». فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَمَا يَعْدِلُ الْحَجَّ؟ قَالَ: «**عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ**»(١).

فبيَّن أن الحج من سبيل الله، وهو من الجهاد، كما قال ﷺ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين سألته: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلَى النِّسَاءِ جِهَادٌ؟ قال: «**نَعَمْ، عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ: الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ**»(٢)؛ فجعل الحج والعمرة من الجهاد في سبيل الله.

فالعمل لهذا الدين من ميادين الجهاد التي فتح النبي ﷺ آفاقها لأصحابه ولم يجعله مقصوراً على مرتبة واحدة وهي القتال، وعندما تكلم ابن القيم عن هدي النبي ﷺ في الجهاد ذكر ثلاث عشرة مرتبة للجهاد، إحداها القتال في سبيل الله.. ثم قال: ولقد كان نبينا ﷺ قائماً بكل هذه المراتب الثلاث عشرة أتم قيام(٣).

وعلى ذلك فإن كل مسلم يجب أن يكون مجاهداً وليس بالضرورة مقاتلاً؛ إذ إن مجاهدة النفس والشيطان، ومجاهدة المنكرات، ومجاهدة المشركين بالقلم واللسان والمال والسنان لا يتصور أن لا يكون للمسلم فيها نصيب، بخلاف القتال الذي لا يتأتى إلا عندما تتهيأ أسبابه.

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٢/ ٣٢٤) (٨١٦).

(٢) «مسند أحمد» (٢٥٣٢٢)، و«سنن ابن ماجه» (٢٩٠١)، و«صحيح ابن خزيمة» (٣٠٧٤)، وأصله في «صحيح البخاري» (١٥٢٠).

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ١١).

وجـاء عن الحسـن البصري أنه قـال: إن الرجـل ليجاهد وما ضـرب يوماً من الدهر بسيف[١].

وقال ابن المبارك: حق الجهاد مجاهدة النفس والهوى[٢].

وقال ابن تيمية: والجهاد منه ما هو باليد، ومنه ما هو بالقلب والدعوة والحجة واللسان والرأي والتدبير والصناعة فيجب بغاية ما يمكنه[٣].

إن توسيع مفهوم الجهاد ومعناه هو ما نحتاجه اليوم، فكم من البشرية لم تبلغهم رسالات الله؟ وكم من البشرية بلغتهم رسالة الإسلام مشوهة محرفة تحتاج إلى تجلية وتصحيح؟ وكم من البشرية لم يعرفوا رسول الله ﷺ كما ينبغي أن يُعرف، ولم يعلموا دعوته كما ينبغي أن تُعلم؟ وبيان ذلك والتعريف به كله جهادٌ في سبيل الله.

ثانياً: من معالم الجهاد النبوي ضبط العواطف والمشاعر النفسية وحسن استغلالها بحيث تصبح وقوداً فاعلاً مؤثراً لا أن تكون رعونات مدمرة، فكان النبي صلوات الله وسلامه عليه يوظف حماس أصحابه ومشاعرهم وطاقتهم بحيث تحولت إلى طاقة دافعة للدعوة، فلم يحدث في تاريخ الدعوة النبوية أن حدث انفعال طائش أو تصرف غير محسوب العواقب، وإنما كان الصحابة في غاية الانضباط والسيطرة على المشاعر النفسية. انظر هذا المشهد في الحديبية: حين تهيَّأ ﷺ لكتابة اتفاقية الصلح الذي كان سُهيل بن عمرو يفاوض رسول الله ﷺ عليه، وفيه: أن من جاء من قريش إلى رسول الله ﷺ رده عليهم. فلما أنهى الاتفاق الشفوي، وبقي كتابة الوثيقة، جاءهم أبو جَنْدل بن سُهيل بن عمرو -وكان مسلماً قد حبسه أبوه في مكة- فاستغل

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٦٤).
(٢) «تفسير الثعلبي» (١٨/ ٤١٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٥/ ٥٠٦).
(٣) «الفتاوى الكبرى» لابن تيمية (٥/ ٥٣٨).

فرصة انشغال قريش بهذه المفاوضات، فتسلل، وخرج بسلاسله، وألقى بنفسه بين المسلمين، وهو يظن أنهم سيحمونه. فلما رآه أبوه، قام إليه، فأمسك به، وقال: يا محمد، هذا أول ما أقاضيك عليه. فقال له النبي ﷺ: «**دَعْهُ لِي**». قال: لَا أَفْعَلُ، فلما أصر ردَّ النبيُّ ﷺ عليه أبا جندل، وتمت الاتفاقية، فكيف بمشاعر المسلمين تلك الساعة وأبو جَنْدل يناشدهم بلوعة ويقول: تتركونني أفتن في ديني، تردونني أفتن في ديني؟ ومع ذلك لم يتصرف أحد تصرفاً غير مسؤول، فزموا غضبهم وسيطروا على مشاعرهم وتجرعوا ألم ما يرونه من حال أخيهم من أجل المصلحة الكبرى، وهي أن تنفذ هذه الاتفاقية، وهذا غاية السيطرة على المشاعر، والانضباط في الانفعالات.

وعن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمْنَا الْحُدَيْبِيَةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِئَةً، فَلَمَّا اصْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ، وَاخْتَلَطَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، أَتَيْتُ شَجَرَةً فَكَسَحْتُ شَوْكَهَا فَاضْطَجَعْتُ فِي أَصْلِهَا، فَأَتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَجَعَلُوا يَقَعُونَ فِي رَسُولِ الله ﷺ، فَأَبْغَضْتُهُمْ، فَتَحَوَّلْتُ إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى، وَعَلَّقُوا سِلَاحَهُمْ وَاضْطَجَعُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي، يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، قُتِلَ ابْنُ زُنَيْمٍ، فَاخْتَرَطْتُ سَيْفِي، ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَى أُولَئِكَ الْأَرْبَعَةِ وَهُمْ رُقُودٌ، فَأَخَذْتُ سِلَاحَهُمْ، فَجَعَلْتُهُ ضِغْثاً فِي يَدِي. ثُمَّ قُلْتُ: وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ، لَا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلَّا ضَرَبْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ، ثُمَّ جِئْتُ بِهِمْ أَسُوقُهُمْ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَجَاءَ عَمِّي عَامِرٌ بِرَجُلٍ مِنَ الْعَبَلَاتِ، يُقَالُ لَهُ: مِكْرَزٌ يَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ عَلَى فَرَسٍ مُجَفَّفٍ، فِي سَبْعِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: «**دَعُوهُمْ، يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ، وَثِنَاهُ**». فَعَفَا عَنْهُمْ رَسُولُ الله ﷺ[1].

(١) «صحيح مسلم» (١٨٠٧).

إن سلمة قد تأذَّى غاية الأذى، لما سمع وقيعة هؤلاء المشركين في النبي ﷺ، وذلك أشد عليه من أن يقعوا في أمه وأبيه. ومع ذلك لم يحمله هذا على تصرف انفعالي، وإنما ترك الشجرة لهم، وتحول إلى شجرة أخرى. فلما سمع الصيحة، وظن أن عدواناً قد حصل على المسلمين، لم يبدأهم بعدوان، وإنما جاء بهم إلى رسول الله ﷺ؛ ليرى فيهم رأيه. وفي هذا غاية الانضباط، وقيادة الانفعال، والسيطرة على المشاعر.

وهذه التربية النبوية على قيادة الانفعالات وضبط المشاعر أنتجت هذا الجيل الذي سُخِّرت كل مشاعره وطاقاته الانفعالية بغاية الانضباط والرشد لمصلحة الدعوة.

ولذلك عندما نتحدث إلى أبنائنا وإخواننا الشباب، ينبغي أن نحتفي بحماسهم ولا نعيرهم به، فحماس الشباب منقبة وليس عاراً، والشاب الفاتر الذي لا حماس فيه لا فاعلية فيه. لكن الشيء المهم أن يتحول حماسه إلى طاقة فاعلة مؤثرة، موجهة بالاتجاه الصحيح، وأن يكون لديه القدرة على قيادة انفعالاتِه لا أن تقوده انفعالاتُه. فكان الهدي النبوي في الجهاد قيادة الانفعالات، ولم يكن الانسياق مع الانفعالات؛ فالحماس الرشيد طاقة دافعة، وليس انفجاراً مدمراً.

ثالثاً: أن القتال ليس مشروعاً مفتوحاً، ولا مطلباً مرغوباً لذاته، ولكنه وسيلة لغاية، تسلك عند الحاجة إليها، وتتقى عند العافية منها؛ ولذا قال ﷺ: «**لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا**»[1].

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، و«صحيح مسلم» (١٧٤٢).

وعند النظر في أسباب القتال نجدها محصورة في أمرين:

الأول: دفع العدوان الواقع أو المتوقع، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿**وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ**﴾. وهذه آية محكمة حصرت القتال بالذين يُقاتِلون، وجعلت ما سواه عدواناً. ولا يصح القول بأنها منسوخة؛ لأنه حكم علق بأمر اعتقادي وهو صفة من صفات الله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ**﴾، وهذا معنى لا يدخله النسخ. فمن قاتَلَنَا، أو هدد بقتالنا، أو استعد لذلك وتهيَّأ له قاتلناه بأمر الله لنا: ﴿**وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ**﴾.

الثاني: قتال كل من يحول بين الناس واتباع الدين ويعرضهم للفتنة إن اتبعوا الحق، وهو بهذا معتدٍ يكف عدوانه ولو بالقتال، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿**وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا**﴾.

وأما من كفَّ فلم يعتد، ولم يَفْتِن مؤمناً في دينه، ولم يحل بين أحد والحق الذي يختاره، فليس محلاً للقتال، والتعدِّي عليه عدوان وتجاوز لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ**﴾.

والدليل العملي على ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في المدينة على الطريق إلى الشام، وكانت عِيرُ القبائل تعبر ذاهبة وآيبة فلم يعرض لشيء منها إلا لعير قريش لما سبق من عدوانهم واستمرارهم في عداوتهم.

ولما ذهب ﷺ إلى غزوة العُشَيرة عاهد قبائل على ألا يقاتلوه ويكف عنهم ومنهم بنو ضمرة[1].

فكانت الموادعة وترك العدوان منهم، كافية في تركهم، وعدم التعرض لهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾.

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة بنخل، فرأوا من المسلمين غرة، فجاء رجل منهم يقال له: غَوْرَثُ بن الحارث، حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: مَن يمنعك مني؟ قال: «**اللهُ**». فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «**مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟**». قال: كن كخير آخذ، قال: «**أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟**». قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، قال: فذهب إلى أصحابه، قال: قد جئتكم من عند خير الناس[2].

فقد اكتفى منه ﷺ بكف العدوان، فلا يقاتل، ولا يعين مقاتلاً.

وبذلك وحَّد النبي ﷺ هدف القتال وأعلى غايته، فليس القتال للمطامع والمغانم، ولا للاستعلاء في الأرض، ولكن له هدف سام وغاية شريفة: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ**»[3].

ويا لله كم من الحروب والمعارك أزهقت فيها ملايين الأرواح، ودمرت بلاد وهدمت مدن؛ لشهوات عدوانية لفرد متجبر! فكم أزهقت من الأرواح في حروب

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٣/ ١٧٩).
(٢) «صحيح البخاري» (٢٩١٠، ٢٩١٣، ٤١٣٥)، و«صحيح مسلم» (٨٤٣).
(٣) «صحيح البخاري» (٣١٢٦)، و«صحيح مسلم» (١٩٠٤).

الإسكندر المقدوني؟ فماذا كانت غايتها؟ وفي حروب جنكيز خان وهولاكو وتيمور لنك! وفي الحربين العالميتين الأولى والثانية! فماذا كانت غاياتها؟

رابعاً: مراعاته ﷺ لتوازن القوة مع العدو، وعدم تعريض الصحابة إلى مواجهات غير متوازنة، كما سيأتي تفصيله.

خامساً: كانت الحروب -ولا زالت- تقوم على التشفِّي، والانتقام، والإبادة، وقتل من يمكن قتله، والتوحش في القتل، والتمثيل بالقتلى، والتنكيل بالأسرى، ولم تكن ثمَّة ضوابط للاقتتال، ولا أخلاق للحروب.

فلما جاء النبي الكريم، جعل لحروبه قيماً وضوابط وأخلاقاً، التزمها وألزم المسلمين بها، **ومن ذلك**:

١- رأى النبي ﷺ وهو متوجه لفتح مكة امرأة مقتولة فأنكر ذلك وقال: «**مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ**». ثم أرسل إلى مقدمة الجيش فنهى عن قتل النساء والصبيان وقال: «**لَا تَقْتُلُنَّ ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيفاً**»[1]. أي أجيراً. ولم يقل أحد: يا رسول الله، إن قريشاً فعلوا بالمهاجرين كذا، وفعلوا في أُحدٍ كذا، وجعل يعدد جرائمهم السابقة.

٢- وكان إذا أمَّر رجلاً على جيش أوصاه فقال: «**اغْزُوا، وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً**»[2]، وجمعها أبو بكر الصِّدِّيق فيما رُوي عنه من طرق متعددة: لَا تَقْتُلُوا صَبِياً، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا شَيْخاً كَبِيراً، وَلَا مَرِيضاً، وَلَا رَاهِباً، وَلَا تَقْطَعُوا مُثْمِراً، وَلَا تُخْرِبُوا عَامِراً، وَلَا تَذْبَحُوا بَعِيراً وَلَا بَقَرَةً إِلَا لِمَأْكل، وَلَا تُغْرِقُوا نَخْلاً وَلَا تُحْرِقُوه[3].

---

(١) «مسند أحمد» (١٥٩٩٢)، و«سنن أبي داود» (٢٦٦٩)، و«سنن ابن ماجه» (٢٨٤٢).

(٢) «صحيح مسلم» (١٧٣١).

(٣) «موطأ مالك» (٩١٨).

٣- ورُوي عنه ﷺ من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال: «**انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللهِ وَبِاللهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللهِ، وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخاً فَانِياً، وَلَا طِفْلاً، وَلَا صَغِيراً، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا تَغُلُّوا، وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ، وَأَصْلِحُوا ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾**»[(١)]، وعَملُ المسلمين في فتوحاتهم جار على ذلك.

لقد أتى النبي ﷺ بهذه التعاليم، والعالم كله لا يعترف بها ولا يطبقها، ومع ذلك ألزم النبي ﷺ المسلمين بها، وإن تنكر العالم كله لها.

والتزم ﷺ الوفاء بالعهود مع أعدائه وحثَّ على الوفاء بها، فلما خرج إلى بدر، وخرجت قريش لقتاله، وقع في أيديهم حذيفة بن اليمان وأبوه يسيران قاصدين المدينة قال حذيفة: فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، قَالُوا إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّداً، فَقُلْنَا مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ. فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَا نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ فَقَالَ: «**انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ**»[(٢)].

وعَن أَبِي رَافِعٍ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَتْنِي قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُلْقِيَ فِي قَلْبِيَ الإِسْلَامُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي وَاللهِ لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَبَداً. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ، وَلَا أَحْبِسُ الْبُرُدَ**[(٣)]**، وَلَكِنِ ارْجِعْ فَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِكَ الَّذِي فِي نَفْسِكَ الآنَ فَارْجِعْ**»[(٤)].

---

(١) «سنن أبي داود» (٢٦١٤).

(٢) «صحيح مسلم» (١٧٨٧).

(٣) البُرُد: جمع بريد وهو الرسول. ينظر: «النهاية» (١/ ١١٥).

(٤) «سنن أبي داود» (٢٧٥٨).

وعندما شرع النبي ﷺ هذه الشرائع في القتال، لم يكن يراعي رأياً عاماً عالميّاً، أو هيئات أممية، أو مواثيق دولية، ولكنه كان يعلن ويطبق شرعاً إلهيّاً هادياً، يعيد البشرية إلى رشدها.

سادساً: كان في قيادته العسكرية جامعاً لصفات القائد وأخلاقه ومواهبه، فكانت علاقة الجيش به هي المحبة الصادقة، والإيمان اليقيني، وكان يشرك الجيش في قراراته فيأخذ الشورى من أهلها ثم يتبعها بالعزيمة في القرار المحكم، مع أخذ الحيطة والحذر، وبَثِّ العيون، واستباقِ خطة العدو، ومفاجأته بما لم يستعد له، وغير ذلك من مهارات الرسول القائد ﷺ[1].

سابعاً: وكان ﷺ في معاركه، مثال الشجاعة والثبات ورباطة الجأش، وذلك حين يحمى الوطيس ويشتد الكرب.

وفي معركة حنين، لما انهزم أصحابه حوله، اقتحم على بغلته وهو يقول: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ، اللهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ**». وأبو سفيان بن الحارث والعباس بن عبد المطلب يمسكان بالبغلة حتى لا تقتحم بعيداً عنهم حتى تراجع أصحابه إليه[2].

ولذا لما قيل للبراء: أَكُنْتُمْ فَرَرْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قَالَ: أَمَّا رَسُولُ الله ﷺ فَلَمْ يَفِرَّ[3].

وكان أشجعُ الصحابة في القتال هو الذي يكونُ قريباً من النبي ﷺ[4].

(١) ينظر: فصل «الرسول ﷺ والقيادة» في كتاب «الحياة النبوية» للمؤلف.
(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٦٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).
(٣) «صحيح البخاري» (٢٩٣٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).
(٤) ينظر: فصل «الرسول ﷺ والشجاعة» في كتاب «الحياة النبوية» للمؤلف.

ثامناً: كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حوله جيشاً على أهبة الاستعداد، وكان يُحفِّزهم للياقة العسكرية جميعاً، بحيث كانوا فيما يشبه نظام التجنيد، فكانوا جميعاً مجندين مستعدين، ويظهر ذلك من التحفيز على مهارات القتال، والإعداد للمعارك التي كان المجتمع عرضةً لها في أي وقت.

ومن الترغيب في مهارة الرمي قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**»[1]. ورغَّب في المنافسة في هذه المهارة؛ فقال لشباب من الأنصار رآهم يترامون بالنبل: «**ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِياً، ارْمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ**». فَأَمْسَكَ أَحَدُ الفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ؟**». قَالُوا: كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ؟ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**ارْمُوا فَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ**»[2].

ورغَّب في الإعداد بحيث يكون كل فردٍ جزءاً من آلة الدفاع، ورغَّب في اتخاذ السلاح واحتباسه للجهاد فقال: «**وَأَمَّا خَالِدٌ فَقَدِ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتُدَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[3].

ورغَّب في اقتناء الخيل وإعدادها فقال: «**الخَيْلُ لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ. فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ: فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأَطَالَ بِهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا[4] ذَلِكَ مِنَ المَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَلَوْ أَنَّهُ انْقَطَعَ طِيَلُهَا، فَاسْتَنَّتْ شَرَفاً أَوْ شَرَفَيْنِ[5] كَانَتْ آثَارُهَا، وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ، فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، فَهِيَ لِذَلِكَ أَجْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا**

---

(١) «صحيح مسلم» (١٩١٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٩٩).

(٣) «صحيح البخاري» (١٤٦٨)، و«صحيح مسلم» (٩٨٣).

(٤) أطال: أي شدّها في الحبل، والطِّيل: الحبل الطويل. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٤٥).

(٥) استنت شرفا أو شرفين: استن الفرس يستن استنانا: أي عدا لمرحه ونشاطه شوطا أو شوطين ولا راكب عليه. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤١٠).

تَغَنِّياً وَتَعَفُّفاً ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا، فَهِيَ لِذَلِكَ سِتْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْراً وَرِيَاءً وَنِوَاءً لِأَهْلِ الإِسْلَامِ، فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ»[1]. وسَابَقَ بَيْنَ الْخَيْلِ الْمُضَمَّرَةِ مِنَ الْحَفْيَاءِ إِلَى ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ، وَمَا لَمْ يُضَمَّرْ مِنْهَا مِنْ ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ إِلَى مَسْجِدِ بَنِي زُرَيْقٍ[2].

وكل ذلك من الإعداد المذكور في قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾.

تاسعاً: ومع شدة العداوات وكثرة الغزوات فإن النبي ﷺ لم يدخل في معركة قتالية من معاركه إلا في ثمان هي: بدر، وأحد، والمريسيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين.

وعدد القتلى في كل معاركه من المسلمين وأعدائهم لم يتجاوز ألف قتيل تقريباً[3].

وهذا يبيِّن لنا أن النبي ﷺ لم يكن بالمتعطش للدماء ولا المتلذذ بالقتل، ولكن يقاتل وكأنه يعالج بمبضع جراح، فلا يتوجه إلى قتال إلا حيث يكون هو الخيار الأوحد، ولا يقتل إلا حيث يُستحقُّ القتل وتسد طرق الإصلاح.

ولذا فإن أكثر الذين انتصر عليهم عفا عنهم، وأكثر الذين قاتلوه قاتلوا بعد ذلك معه وعنه.

عاشراً: وفاؤه للشهداء، وبشرى أهليهم بحسن منقلبهم، فعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جِيءَ بِأَبِي قَتِيلاً يَوْمَ أُحُدٍ، فَجَعَلَتْ فَاطِمَةُ أُخْتُهُ تَبْكِيهِ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تَبْكِيهِ، مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ**»[4].

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٣٧١)، و«صحيح مسلم» (٩٨٧).
(٢) صحيح البخاري» (٤٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٨٧٠).
(٣) «السيرة النبوية» للندوي (ص٦٥٦).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٨١٦)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أُصِيبَ حارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فَإِنْ يَكُنْ فِي الجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ، وَإِنْ تَكُ الأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ، فَقَالَ: «**يَا أُمَّ حَارِثَةَ! إِنَّهَا لَيْسَت جَنَّةً، إِنَّهَا جِنَانٌ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى**»[1].

وعَن أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةٍ لَهُ، فَلَمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟**». قَالُوا: نَعَمْ، فُلَاناً، وَفُلَاناً، وَفُلَاناً، ثُمَّ قَالَ: «**هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟**». قَالُوا: نَعَمْ، فُلَاناً، وَفُلَاناً، وَفُلَاناً، ثُمَّ قَالَ: «**هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟**». قَالُوا: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَكِنِّي أَفْقِدُ جُلَيْبِيباً، فَاطْلُبُوهُ**». -وكان جليبيب رجلاً من فقراء المسلمين- فَطُلِبَ فِي الْقَتْلَى، فَوَجَدُوهُ إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ قَدْ قَتَلَهُمْ، ثُمَّ قَتَلُوهُ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَا هُوَ ذَا إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ، قَدْ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَأَتَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَوَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «**أَقَتَلَ سَبْعَةً ثُمَّ قَتَلُوهُ؟ هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ**». قَالَ: فَوَضَعَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى سَاعِدَيْهِ، فَحُفِرَ لَهُ مَا لَهُ سَرِيرٌ إِلَّا سَاعِدَا رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ وَضَعَهُ فِي لَحْدِهِ[2].

ومن وفائه لهم خلافتهم في أهلهم؛ فقال في أم سُليم -وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ بَيْتاً بِالْمَدِينَةِ غَيْرَ بَيْتِها إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِ-: «**إِنِّي أَرْحَمُهَا قُتِلَ أَخُوهَا مَعِي**»[3].

ومن وفائه لهم زيارتهم في قبورهم في أُحُد قبل وفاته كالمودِّع للأحياء والأموات.

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٨٢).

(٢) «مسند أحمد» (١٩٧٧٨، ١٩٧٨٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٨٤٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٥).

حادي عشر: لم يكن قتاله للطمع الدنيوي، وكسب الغنائم، والتكثر منها. ولما سُئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل للمغنم أي ذلك في سبيل الله؟ قال: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[1].

وعندما أرسل علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالراية إلى حصن خيبر، وكانت حصونها خزائن الذهب والفضة، ونخيلها خزائن التمور والثروة الغذائية، أمره بدعوتهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وقال: «**وَاللهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»[2]. هذا مع سابق عداوتهم وكيدهم الدافع للانتقام، وكثرة ثرواتهم ونخيلهم المغرية بالطمع، ولكن كانت الهداية أحب إليه من ذلك كله.

ومثل ذلك قسمته غنائم حنين على من كانوا أعداءً له من قريب يتألَّفهم بذلك ويستطيب قلوبهم.

قالوا غَـزَوتَ وَرُسـلُ اللهِ ما بُعِثوا ... لِقَتلِ نَفسٍ وَلا جـاؤوا لِسَفكِ دَمِ
جَهلٌ وَتَضليلُ أَحـلامٍ وَسَفسَطَةٌ ... فَتَحتَ بِالسَيفِ بَعدَ الفَتحِ بِالقَلَمِ
لَمّا أَتـى لَـكَ عَفواً كُـلُّ ذي حَسَبٍ ... تَكَفَّلَ السَيفُ بِالجُهّالِ وَالعَمَمِ
وَالـشَـرُّ إِن تَلقَهُ بِالخَيرِ ضِقتَ بِهِ ... ذَرعـاً وَإِن تَلقَهُ بِالشَرِّ يَنحَسِمِ
عَلَّمتَهُمْ كُـلَّ شَـيءٍ يَجهَلونَ بِهِ ... حَتّى القِتالَ وَما فيهِ مِـنَ الـذِّمَمِ[3]

(١) «صحيح البخاري» (٢٨١٠)، و«صحيح مسلم» (١٩٠٤).
(٢) «صحيح البخاري» (٢٩٤٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٦).
(٣) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

القوة وتوازنها

ولابد بين يدي هذا القول، أنْ يُقَرَّرَ أنَّ القوة هي الموازِنَة التي تعتبر وتراعى، لا يلزم أن تكون بالعدد والكثرة، فقد تكون بنوع السلاح. ولذا كان النبي ﷺ يَقْسِم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهماً[1]، فالفارس كأنه ثلاثة مقاتلين، بنوعية السلاح الذي معه، وهو الفرس.

ونوعية السلاح وتقنيته تتطور اليوم بتسارع شديد، فأسلحة الحرب العالمية الثانية صارت كلعب الأطفال بالنسبة للأسلحة الحديثة المتطورة، وأسلحة الدمار الشامل.

وقد تكون القوة هي الحيلة والحنكة العسكرية، بحيث يتغلب الجيش القليل على الجيش الكثير بهذه الحيلة، وتتغلب القلة المنظمة على الكثرة المشتتة؛ ولذا قال ﷺ: «**الْحَرْبُ خَدْعَةٌ**»[2].

وقد تكون القوة هي المهارة القتالية، ولذا فسر النبي ﷺ القوة بالرمي فقال: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**»[3]، ولكل عصر مهاراته القتالية المتطورة بتطور وسائل القتال.

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٢٨)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٠٢٩)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٦).

(٣) «صحيح مسلم» (١٩١٧).

والتطور في هذا المجال يتسارع ويتخصص بحيث صارت العلوم العسكرية تخصصات عميقة ومتنوعة.

وإن استدعاء التاريخ بطريقة التطابق لا يساعدنا على فهم الأزمة الحالية ومعالجتها.

فقد كانت الحروب القديمة تعتمد على ثقافة متشابهة بين الأمم، ونوعية سلاح متقارب هو غالباً السيوف والرماح والسهام، ولم يكن الفارق كبيراً في نوعية السلاح، وكان القائد يمثِّل عنصر حسمٍ كبير في تحشيد الناس، وإحراز النصر على العدو.

أما اليوم فالحروب قائمة على التفوق التقني، وهو تفوق تحرزه دول مستقرة، تنفق على البحث العلمي بسخاء، ولا تكتفي بمتابعة التطور بل بمسابقته.

ومشكلة أكثر الدول الإسلامية أنها تعيش مرحلة ما قبل الدولة الحديثة.

ولن يتعدل ميزان القوى إلا بتطوير الدول وتحديثها، واكتساب المعرفة النوعية وتوطينها.

وكلتا المعركتين: «معركة تطوير الدولة وتحديثها»، و«نقل التقنية الحديثة وتوطينها» تحتاج إلى جهاد واجتهاد، وتضحيات لا حدود لها، إذا رغبنا في تجسير الهوة بين واقع الأمة وموقعها اللائق بها، وتحقيق شيء من الإنجاز الحقيقي في ذلك.

إن القوة قدر مترابط بين الاقتصاد والسلاح والأرض، وكان يمكن أن يكوّن الرسول ﷺ منذ كان بمكة جيشاً صحراويّاً يُغِيرُ هنا وهناك، لو قد قصرنا القوة بالقوة العسكرية، ولكنه لم يبدأ حتى كوّن دولة مستقرة، وتحالفات قبلية ونحو ذلك[1].

(١) منقول.

إن القوة ليست في تكديس العتاد، ولكنها مجموعة من العناصر تتوافر لتحقق القوة المتكاملة للدول حتى تستطيع تحقيق وجودِهَا، ومنافسة غيرها.

فالقوة اليوم قد تشعبت ودخلت في كل مرافق الحياة وشؤونها، فهناك القوة السياسية والاقتصادية، والتكنولوجية، والإعلامية، والتعليمية وغيرها، بينما يختصر بعضنا القوة في القوة العسكرية.

وكذلك يُختصر النصر في النصر العسكري، مع أن النصر العسكري ثمرة انتصارات كثيرة قبله في مجالات كثيرة متنوعة.

ولا تزال الفجوة واسعة، لا يستطيع قائد أن يردمها مهما كانت قدرته، رغم الأهمية النسبية للقائد. وما ثم إلا اقتباس معرفي وتحرر سياسي، يُراكم الإنجازات، ويخلق تحولاً متدرجاً نحو الاستقلال.

وقد رأينا كيف أن صرف الطاقة للمنازلة العسكرية أحدث إفلاساً وتخلفاً في الدول التي سلكت هذا الطريق، ورفعت شعار: لا صوت يعلو فوق صوت المعركة، فلم تحقق نمواً، ولم تنتصر في معركة، وبقيت شعوبها تتجرع غصص الحرمان، وتتنزل في دركات التخلف.

طـوى الحصير وافـتـرش الثرى   شعب بـأمـر الله يمشي القهقرى

أمّا مَنْ يقرر كفاءة القوة وموازنتها لقوة العدو فهم أهل الاختصاص العسكري والسياسي، وليس العالم الشرعي، ولا يصح أن نُقحم العالم الشرعي ولا أن يقحم نفسه فيما لا يُحسِن. ولذا كان الذي يتولَّى قيادة الجيوش النبوية القائد العسكري خالد بن الوليد وليس أبا هريرة المحدِّث، ولا أباذر الغِفاري العابد الزاهد، ولا ابن مسعود الفقيه، ولا أُبي بن كعب القارئ، مع أن خالد بن الوليد لم يكن فقيهاً مفتياً،

ولا راوياً حافظاً، وكان إذا أم القوم في الصلاة لا يقرأ بهم سورة تامة ولكن يقرأ ما حفظ وهي آيات مفرقة، ثم يقول: إنه قد شغلتنا الحروب عن حفظ القرآن، وقد قرأت لكم من سور شتى وكل طيب مبارك[١]، ولكنه كان قائداً عسكريّاً عبقريّاً قبل إسلامه وبعده.

وكذا أوكل النبي ﷺ قيادة جيش ذات السلاسل إلى عمرو بن العاص وعمره في الإسلام أقل من سنة، وفي جيشه السابقون إلى الإسلام أبو بكر وعمر وأبو عبيدة؛ لأن دهاء عمرو ومواهبه القيادية تؤهله لهذه القيادة، ولم يكن يومها الأعلم بالكتاب والسنة، ولكنه الأدهى في القيادة، والأليق لهذه المهمة[٢].

إن علماء الشريعة المتخصصين، لا يقبل بعضهم من بعض في غير اختصاصهم؛ فالمحدث لا يقبل من الفقيه نقدَه الحديث، والفقيه لا يقبل من المحدث رأيه الفقهي، حتى قال الإمام أحمد وقد سُئل عن شيخه عبد الرزاق الصنعاني: أفقيه هو؟ قال: لا، ما أقل الفقه في أهل الحديث![٣].

وقال الحافظ ابن حجر –وهو يتعقَّب أحد العلماء من شراح البخاري، في مسألة أخطأ فيها– فقال: إذا تكلم المرء في غير فنه أتى بهذه العجائب[٤].

فإذا كان العلماء لا يقبل بعضهم من بعض إلا ما هو من تخصصهم فكيف يقحمون في الشأن العسكري والشأن السياسي؟ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾.

ومن روائع ابن القيم قوله وهو يتحدث عن تحديد الغرر في البيوع: وقول القائل: إن هذا غرر ومجهول؛ فهذا ليس حَظَّ الفقيه ولا هو من شأنه، وإنما هذا من شأن

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٠٢٦٣).
(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٣٤٠)، و«السيرة النبوية الصحيحة» للعمري (٢/ ٤٧١).
(٣) «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (١/ ٣٢٩).
(٤) «فتح الباري» (٣/ ٥٨٤).

أهل الخبرة بذلك، فإن عَدُّوه قِماراً أو غرراً فهم أعلم بذلك، وإنما حظُّ الفقيه: يَحِلُّ كذا لأن الله أباحه، ويحرم كذا لأن الله حرمه، وقال الله تعالى، وقال رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وقال الصحابة، وأما أن يرى هذا خطراً وقماراً أو غرراً فليس من شانه، بل أربابه أخبر بهذا منه، والمرجع إليهم فيه[1].

فإذا كان ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ لا يرى أن الفقيه أَهْلٌ في تحديد الغرر والجهالة والمخاطرة في البيوع، فكيف سيقول لو رأى من يريد أن يجعل للعالم الشرعي الرأي في الشأن السياسي والعسكري والإعلامي وغيرها؟ وكأننا بذلك نرفعه من مرتبة عالم شرعي إلى رتبة: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.



(١) «إعلام الموقعين» (٥/ ٤٠٠).

من نبأ المرسلين

سنة الله جارية في عالم الأسباب، وخرق هذه السنن والأسباب استثناء من النظام الكوني الذي سخره الله وأجراه؛ ولذا فهو من معجزات الأنبياء ودلائل نبوتهم إلى قومهم. ومع وقوع الخوارق للأنبياء، إلا أن مسارهم كان في مجمله على وفق السنن والأسباب، بل إن المعجزة إذا وقعت جعل الله لها سبباً تقع به: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾، ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾. فجعل للمعجزة سبباً بشريّاً، وهو ضرب البحر والحجر بالعصا، وهز جذع النخلة.

ومن رعاية المرسلين للأسباب الكونية واعتبارها:

١ - في قصة نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما دخل مصر وكان ملكها جباراً من الجبابرة فقيل له: إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة قال: يا سارة: ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأُطلق، ثم تناولها

الثانية فأُخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأُطلق، فدعا بعض حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مهيا، قالت: رد الله كيد الكافر -أو الفاجر- في نحره، وأخدم هاجر[1].

إن إبراهيم لم يفعل شيئاً غير أن قام يصلي ويدعو ربه، ولم يؤمر بأن يواجه ويقاتل بما يستطيع مهما قَلَّ وضَعُف، ولم يؤذن له في ذلك، لأنه لا يملك قوة يدافع بها، ونتيجة المواجهة في عالم الأسباب أن يقتل وتصبح المرأة شريدة غريبة.

فكان ما كلف به هو ما يستطيعه، وهو تقليل الضرر، واستخدام ما يمكن من الحيلة، واللجأ إلى الله في دفع عدوان هذا الظالم الجبار، فقام يصلي ويدعو، فحفظه الله وحفظ له.

ولم يكلف مدافعةً لا يستطيعها، ولا أُمر بما ليس في وسع البشر ولا مقدورهم، مع أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المؤيد بالمعجزات، الذي جعل الله له النار برداً وسلاماً.

قال الحافظ ابن حجر: إن إبراهيم أراد دفع أعظم الضررين بارتكاب أخفهما، وذلك أن اغتصاب الملك إياها واقع لا محالة، لكن إن علم أن لها زوجاً في الحياة حملته الغيرة على قتله وإعدامه. وفي الحديث الرخصة في الانقياد للظالم والغاصب، أي في حال قوة الظالم وضعف المظلوم[2].

٢- وفي قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع ملك مصر، حين خرج من السجن وصار عزيزَ مصر المكينَ الأمينَ، ومع ذلك بقي في حكم مَلِكٍ كافرٍ، وأُمَّةٍ كافرة، ولم تَجِب عليه

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٥٨)، و«صحيح مسلم» (٢٣٧١).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٣٩٣).

المواجهة وهو وحده، ولا عندما لحق به إخوته، وإنما اختار أن يبقى معهم بلا مواجهة، ولكن بالإصلاح الممكن، فصار عزيز مصر يُحسن ويَنفع ويُنفق.

ويقيننا أن مشروعه الأكبر هو الدعوة بالحسنى، كيف وهو الذي كان يدعو إلى الله في كُربةِ السجن فكيف بعد أن مكنه الله في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

ومع ذلك بقي أهل مصر بعمومهم على وثنيتهم؛ ولذا كانت الوَصاة بالتوحيد هي وصية يعقوب لبنيه في مصر عند موته: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، وذلك أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ رأى الوثنية فاشية في مجتمع مصر فخاف على بنيه، وعهد إليهم وأوصاهم.

ولكن بقي من دعوة يوسف أثارةٌ وبقية باقيةٌ بين أهل مصر؛ ولذا قال مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه مخاطباً فرعون وقومه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، فلم يذكّرهم ببينات يوسف، إلا لأنه كان لها ذكر مذكور وآثار باقية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمة: تولّي يوسف الصِّدِّيق على خزائن الأرض لملك مصر، بل ومسألته أن يجعله على خزائن الأرض، وكان هو وقومه كفارا، كما قال تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾. ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد -وهو ما يراه من دين الله- فإن القوم لم يستجيبوا له، لكن فعل الممكن من العدل والإحسان، ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته ما لم يكن يمكن أن يناله بدون ذلك، وهذا كله داخل في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[1].

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٠/ ٥٥-٥٦).

٣- وفـــي موقـــف موســـى عَلَيْهِ السَّلَامُ من تهديـــد فرعون ووعيـــده لبني إســـرائيل مشهد واعتبار.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

هذا ما قاله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد هذا التهديد الفرعوني للمستضعفين من بني إسرائيل: استعينوا بالله فيما تقدرون عليه، واصبروا على ما لا تقدرون عليه، واعلموا أنكم وأعداؤكُم في ملك الله وتحت تدبيره، وسيورث الأرض من يشاء متى يشاء، والعاقبة للمتقين، فمن حقق التقوى نال هذه العقبى.

ولاحظ أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي بَشَّرَ بهذه البشرى -وهي وراثة الأرض- مات في صحراء التيه، ولم يدرك تحقق هذه البشرى، وإنما أدركها الجيل الذي بعده -جيلُ يوشع بن نون- ليتحقق موعود الله لهم: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾. فانظر إلى أمر موسى لهم: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾، وعطاء الله لهم ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾.

وانظر كم كان بين البشرى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وتحقق البشرى في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾.

فبين البشرى وتحَقُّقِها توفي موسى وهارون، وانقرض جيل وجاء جيل؛ وذلك لأن موعود الله ليس مرتبطاً بأعمارنا الضيقة القصيرة، ولكن بعمر الأمم الواسع الطويل.

وأَنَّ نصر الله وفرجه لا يتحقق في الوقت الذي نختاره نحن، ولكن في الوقت الذي يختاره الله عَزَّوَجَلَّ بعلمه الواسع، وحكمته البالغة، حين يكون نفعه أعظم وأدوم، وليختار الله له الجيل اللائق به، والذي يتلقى هذه الهبة الإلهية العظيمة، فيرعاها حق رعايتها، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

ومثل ذلك بُشْرى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «**وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[1]. لقد بشَّر به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أصحابه المستضعفين في مكة، فرأى المبَشَّرون ذلك. وأما المبشِّر به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فقد لحق بالرفيق الأعلى، قبل أن يدرك ذلك أو يراه.

ومثل ذلك: بشرى الله لنبيه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾، وقد أدرك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ طلائع هذا الظهور يوم جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

ولكن تحقق هذا الظهور واكتماله كان بعد وفاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بسقوط دولة الفرس ودينهم، وانحسار مُلْك الروم ودينهم، وصار الظهور على الدين كله لرسالة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ودينه الذي لم يدرك عمره الشريف اكتمال بشائره.

٤- وكذلك قصة مؤمن آل فرعون التي ذكرها الله في قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ

(١) «صحيح البخاري» (٦٩٤٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

لقد كان هذا قرار فرعون وهو قتل موسى، وكان الصوت الوحيد الذي عارض هذا القرار هو صوت رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه.

وسياقةُ الآية تدل على مكانة هذا المؤمن عند فرعون وعلو منزلته لديه؛ بدليل ذكره في الآية على أنه من آل فرعون قرابةً أو مكانةً، وحضوره عند فرعون وقربه منه، وكونه من أهل المشورة الذين عرض عليهم فرعون رأيه. ولذا فإن رد فرعون كان رداً هادئاً؛ فلم يعاقبه أو يتوعده، بل لم يحاججه أو يجادله، وإنما قال: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، ونفع الله بكلمة هذا المؤمن فكف فرعون عما أراد من قتل موسى، وحفظ الله هذا المؤمن فلم ينله فرعون بعقوبة: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾.

وهنا نقف أمام أمرين مهمين:

الأول: هذا المؤمن الذي شهد الله له بالإيمان: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، إذا كان يكتم إيمانه، فما الذي أظهر من دينه؟ إنه لا يمكن أن يجرؤ وهو بين فرعون وملئه أن يُظهر ما يدل على دينه؛ ولذا كتم أصل هذا الدين وهو الإيمان، وبقي معهم متظاهراً أنه على دينهم.

ومع ذلك عذره الله بذلك، وأنجاه من عقوبة الدنيا وعذاب الآخرة، لأن هذا هو قدر استطاعته واقتداره.

الثاني: إن هذا الرجل استخدم الحكمة وهي عدم المواجهة المتعجلة، فلم يظهر الإيمان بموسى، ولم ينضم إليه مع بني إسرائيل، وإنما استمر على كتمان إيمانه، وادخر

نفسه لهذا الموقف الذي كان من نتيجته إقلاع فرعون عما عزم عليه من قتل موسى وتوجهه إلى محاولة إبطال دعوته ودعواه، فقال فرعون بعد سماع كلام هذا المؤمن ومجادلته: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾.

وكانت هذه حكمةً من هذا المؤمن في اتخاذ الموقف، وإدارة الحوار، وإن كان يعيش كاتماً إيمانه في البلاط الفرعوني.

فلكل موقف ظروفه، ولكل حال لبوسُها.

٥- وقصة نجاة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من فرعون التي نصوم كل سنة شكراً لله عليها هي في حقيقتها فرار ببني إسرائيل من تسلط فرعون وبغيه عليهم، وقد أذن الله لهم بذلك، ولم يكلفوا بمواجهة لا يطيقونها.

٦- وقصة سحرة فرعون الذين آمنوا فكان مآلهم تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليبهم في جذوع النخل، ولم يؤمروا بالمواجهة، وما كانت ممكنة لهم أمام جيوش فرعون وعُدَده.

٧- لما ذكر الله قصة موسى والخضر مع أهل السفينة وأنه خرقها لأنه: ﴿كَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، ولم يأمر هؤلاء المساكين بمواجهة الملك بما معهم من عدة ممكنة، مع أن معهم نبيين كريمين من أنبياء الله. وإنما اختار تجنب المواجهة غير المتكافئة، وأن يعيب السفينة؛ ليزهد فيها هذا الملِك الغاصب.

٨- وعندما أمَرَ موسى قومه بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدَّسة فأَبَوْا وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾، كان منهم فئة قليلة استعدت للمواجهة، وتكلم رجلان منهم فقالا: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ

غَلِبُونَ ﴾. ومع ذلك لم يأمر الله نبيه موسى، أن يذهب هو وأخوه ومن أطاعه -وإن كانوا قلة- ليواجهوا عدواً يفوقهم عدداً وعدة، ليخوضوا معركة غير متكافئة.

٩- وقصة أصحاب الأُخدود، وهم جمع كثير، ومع ذلك كانت نهايتهم حين آمنوا التحريق بالنار. ومع هذا التهديد المرعب لهم، لم يكونوا في حال قدرة على المواجهة، ولم يكن معهم من القوة ما يدافعون به، فلم يؤمروا بمواجهة لا جدوى منها، وإنما صبروا لمصيرهم، ومضت سنة الله فيهم، لينقلبوا إلى موعود ربهم الذي لا يُخلف.

١٠- أن سنة الله جرت في ابتعاث رسله، في أنساب قومهم، وأشراف قبائلهم، وذوي المكانة فيهم؛ ليكون من حكمة ذلك تقويتهم وحمايتهم من جراءة قومهم عليهم، كما قال قوم شعيب له: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾[١].

وكما كان حال نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فإن هرقل سأل أبا سفيان: أهو فيكم ذو نسب؟ قال: هو فينا ذو نسب. قال هرقل: فكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها[٢].

ولشرفه وكريم نسبه راعت قريش مكانة قومه بني هاشم ومكانة عمه أبي طالب، ودفع الله عن نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بذلك جراءة قريش وكثيراً من تعديهم وأذاهم.

ولذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**فَمَا بَعَثَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **بَعْدَهُ** -أي: بعد لوط- **نَبِيّاً إِلَّا بَعَثَهُ فِي ذِرْوَةِ قَوْمِهِ**». وفي رواية: «**فَمَا بَعَثَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **نَبِيّاً بَعْدَهُ، إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ**»[٣].

قال العلامة ابن خلدون: وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام في دعوتهم إلى الله بالعشائر والعصائب وهم المؤيّدون من الله بالكون كلّه لو شاء، لكنّه إنّما أجرى

(١) «التحرير والتنوير» لابن عاشور (١٢/ ١٤٨).
(٢) «صحيح البخاري» (٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٣).
(٣) «مسند أحمد» (١٠٩٠٣).

الأمور على مستقرّ العادة والله حكيم عليم، وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى النّاس بخرق العوائد فما ظنّك بغيرهم أن لا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبيّة[١].

وكثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم بإقامة الحقّ ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في إقامته من العصبيّة، ولا يشعرون بمغبّة أمرهم ومآل أحوالهم.

والّذي يُحتاجُ إليه في أمر هؤلاء إمّا المداواة إن كانوا من أهل الجنون، وإمّا التّنكيل بالقتل أو الضّرب إن أحدثوا هرجاً[٢].

١١- ثم سار على إثر أنبياء الله في هذا الأمر أتباعُهم من مؤمني الأمم السابقة، ومن ذلك ما ذكره الله من خبر أصحاب الكهف، وهم الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى، وقاموا فقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

ومع رسوخ إيمانهم، واستبانة ضلال قومهم باتخاذ الآلهة من دون الله، إلا أنهم لم يواجهوا قومهم، وهم الفئة القليلة الضعيفة. فأين لفتيةٍ سبعةٍ أن يواجهوا دولة وقوة وسلطاناً؟! ولذا اختاروا الاعتزال والاختفاء في الكهف؛ فراراً بدينهم، وحفاظاً على حياتهم؛ ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

(١) إذا كانت رؤية ابن خلدون للعصبية محدودة في نطاق الروابط القبلية يومذاك، فإنها تنسحب في الفترات اللاحقة على التنظيمات البشرية التي تعتمد القوة والعصبية الحزبية، وتحل فيها رابطة الولاء على رابطة النسب.. فالأمر سواء. «ابن خلدون إسلاميّاً» (ص٤٠).

(٢) «مقدمة ابن خلدون» (١/ ١٩٩-٢٠٢).

فلم يلاموا على تجنب المواجهة غير المتوازنة، وعَذَرهم الله وأحاطهم وحفظهم، واختصهم بكرامات خارقة هي النوم لقرون متطاولة، لم تبلَ فيها أجسادهم، ولم تتغير أوصافهم، وجافى عنهم أشعة الشمس عند طلوعها وعند غروبها: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾، وطوال هذه المدة الطويلة كانوا نياماً وكأنهم مستيقظون، حيث إن أعينهم مفتحة لم تنطبق، ويقَلَّبون في نومهم الطويل يميناً وشمالاً حتى لا تأكل الأرض أجسادهم، وألقى الله عليهم مهابة ورعباً يجده الناظر إليهم حتى لا يجرؤ أحد على الدنو منهم، ولا تمسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب أجله: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾[1].

فكيف صحبتهم هذه الكرامات الخارقة في عزلتهم ومأواهم؟ ومع ذلك لم يقتحموا مواجهة غير متكافئة، ولم يعتمدوا على كرامة متوقعة، وإنما عملوا بما يستطيعون وهو الفرار بدينهم، واعتزال قومهم تجنباً لبطشهم.

وعندما استيقظوا بعد نومهم الطويل، استمروا على حذرهم واحتياطهم، فبعثوا أحدهم بنقودهم الفضية ليشتري لهم طعاماً، وأوصوه بالحيطة والحذر: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ خوفاً أن يتعرضوا للقتل أو الفتنة في الدين؛ ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا﴾.

فهؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى، كانوا في مسيرهم الحذر مصحوبين بهداية الله لهم، ورحمته إياهم، وتوفيقه لأرشدِ أمرهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، وبقيت مسيرتهم قرآنا يُتلى إلى يوم القيامة؛ ليكون لنا من بين حِكَمِها

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٤٥).

البالغة أن التعبد لله إنما هو بالمستطاع من قُدْرة العبد وإمكاناته، وأن اقتحام المواجهة مع الأعداء مهما كانت عداوتهم وبغيهم، وضلالهم وكفرهم، إنما هو في مجالات مقادير الحياة ومقَدَّرات الأحياء. فإذا تجاوزت إمكاناتُ الأعداء إمكاناتِنا وقدراتِنا الآنية، جاء معها التخفيف بالتكليف باليسير الممكن، وليس بالعسير المهلك؛ ولذا كان خيار أصحاب الكهف تجنب المواجهة غير المطاقة، والفرار بدينهم واعتزال قومهم، ولم يُكلفوا أو يَتكلفوا فوق طاقتهم.



وقائع السيرة النبوية

تتابعت أحوال النبي ﷺ وأقواله، وتواطأت على اعتبار توازن القوة عند مواجهة الأعداء في سياق متوالٍ من حديثه وأحداث حياته ﷺ، **فمن ذلك:**

١- دلالة الكف عن القتال في المرحلة المكية، وهي حالة يتكرر حكمها كلما تكرر ظرفها، وليست مرحلة نسخت بما بعدها، وهو ما قرَّره شيخنا عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان يستدل بهذه الحالة على ما يشبهها.

ومعلوم أن الصحابة لم يكونوا أشحةً بأنفسهم لو طَلَب منهم النبي ﷺ المواجهة في ذلك الوقت، ولكنهم لم يُؤْمروا بذلك، وإنما كان التوجيه الإلهي لهم: ﴿**كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ**﴾؛ لأنها ستكون مواجهةً غير متكافئةٍ في عالم الأسباب.

٢- حديث خَبَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً، وَهُوَ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ وَقَدْ لَقِينَا مِنَ المُشْرِكِينَ شِدَّةً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَلَا تَدْعُو اللهَ، فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ، فَقَالَ: «**لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الحَدِيدِ، مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ المِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ**

مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، مَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ»[1].

إن هؤلاء الصحابة الذين أتوا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يشتكون شدة الأذى من المشركين لم يطلبوا من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ما يُستنكر، وإنما سألوه الدعاء، ومع ذلك غضب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هذا الغضب حتى احمر وجهه.

وسبب غضب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، أنه استشعر أن هذه النفوس قد أمضها الألم واستبطأت الفَرَج، فأخبرها بأن لله موعوداً صادقاً لابد أن تصير الأمور إليه، ثم أخبرهم بأنهم يستعجلون، والعجلة نِسْبية، فهم بقوا ثلاث عشرة سنة في مكة تحت هذا الظلم والعذاب، ومع ذلك يقول لهم: «**وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**». لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يُمضي سننه وفق ناموسه الذي وضعه لهذا الكون، ولا يعجل لعجلة أحد من خلقه.

والعجيب أن هذا الموعود الذي أخبرهم به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم يدركه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهو الذي بَشَّرَ به، وأدركوه هم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

مما يدل على أن السنن لابد أن تأخذ وقتها، وأن تأتي نتائجُها في إبَّانها.

٣- خبرُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مع آل ياسر عندما مر بهم وهم يعذَّبون، فقال: «**صَبْراً يَا آلَ يَاسِرَ؛ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ**»[2]، ونلاحظ هنا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خاطب المعذَّبين الصابرين ولم يخاطب المعذِّبين المتجبرين؛ فلم يخاطب ملأ المشركين فيقول لهم: لماذا تعذبونهم؟ وإنما وجه الخطاب للمعذَّبين الصابرين، يطلب منهم مزيد الصبر والاحتساب، ويبشرهم بكريم العقبى في الجنة، فلم يعدهم بشيء في الدنيا،

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٥٢، ٦٩٤٣).

(٢) «مستدرك الحاكم» (٥٦٤٦).

وإنما وعدهم بالموعود الأخروي الجنة. أما المعذِّبون من ملأ قريش، فلا أتوقع إلا أنهم كانوا يتمنون أن يوجه النبي ﷺ الخطاب إليهم، حتى يجدوها فرصة للتشفي منه، والرد عليه بما يليق بهم من سيئ القول، ولكن النبي ﷺ أعرض عنهم، فلم يوجه الخطاب إليهم وإنما وجهه إلى المؤمنين المعذَّبين الصابرين.

وهنا نتساءل: لم صبر هؤلاء على العذاب، ولم يقاتلوا المشركين بقوتهم الضعيفة؟ إنهم لم يؤمروا بذلك بل جاءتهم الرخصة في الجهر بالكفر؛ اتقاءً لاستمرار العذاب، فإن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخبر عن المعذَّبين أنهم قد أجابوا كلُّهم، إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه وهان عليهم[1].

فكل المعذَّبين مثل سالمٍ مولى أبي حذيفة، وخَبَّابٍ، وعمارٍ أسمعوا المشركين ما يريدون ليسلموا من عذابهم، وكانت قلوبهم مطمئنة بالإيمان، ونزلت تزكية الله لهم: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، ولم يطلب منهم مواجهةٌ لهؤلاء الذين يعذبونهم، أو الدخول في معركة لا يملكون عتادها.

٤- حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان، فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أَنظرُ، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ[2]، أي: لو كان لي منعة لرفعت سلا الجزور عن ظهر النبي ﷺ، ولكن لضعف جسده

---

(١) «مسند أحمد» (٣٨٣٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٤).

ونسبه في قريش إذ ليس منهم، لم يجرؤ حتى على هذا القدر وهو رفع الأذى عن ظهر المصطفى ﷺ، فضلاً عن الدفاع عنه ومواجهة أعدائه.

والعجيب أن ابن مسعود يحدِّث بذلك بعد وفاة النبي ﷺ وظهور الإسلام واتساع الفتوح، ولم يجد غضاضةً في أن يروي هذه القصة ويحكي حاله فيها؛ لظهور العذر له في ذلك، مما يدل على أن هذا حكم متقرر عندهم، يتكرر بتكرر ظروفه وأحواله.

٥- ما جرى للنجاشي ملك الحبشة الذي أسلم وبقيت دولته على النصرانية، ولم ينفر لمواجهة دولته مواجهة يعلم أن عاقبتها دمارٌ وهلاك، وإن كان هو الملك لكن الدولة كلها كانت على النصرانية، وهو ما نعبر عنه بالدولة العميقة، فاختار أن يُسِّر إسلامه ويستمر في ملكه وينفع بما يمكنه ويستطيعه. وقد نفع الله به فكان مأوى وجواراً لأصحاب رسول الله ﷺ نحواً من خمس عشرة سنة، وانتشر الإسلام بأناة ورفق بين الأحباش، وصار للإسلام امتداد في قارة أفريقيا منذ فجر الدعوة.

وكل ذلك كان في حياة النبي ﷺ ومعرفته وإقراره، وهو ﷺ الذي أخبر أصحابه بوفاته، وقال: «**مَاتَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ**»[1]، وخرج بهم إلى المصلَّى، وصلى عليه صلاة الغائب في السنة التاسعة من الهجرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وكذلك النجاشي، هو وإن كان مَلِكَ النصارى، فلم يطعه قومه في الدخول في الإسلام، بل إنما دخل معه نفر منهم. ولهذا لما مات، لم يكن هناك من يصلي عليه فصلى عليه النبي ﷺ بالمدينة، خرج بالمسلمين إلى المصلى فصفهم صفوفاً وصلى عليه، وأخبرهم بموته يوم مات، وقال: «**إِنَّ أَخاً لَكُمْ صَالِحاً مِنْ أَهْلِ الْحَبَشَةِ مَاتَ**».

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٧٧)، و«صحيح مسلم» (٩٥٢).

وكثير من شرائع الإسلام أو أكثرها، لم يكن دخل فيها لعجزه عن ذلك، فلم يهاجر ولم يجاهد ولا حج البيت. بل قد روي أنه لم يكن يصلي الصلوات الخمس، ولا يصوم شهر رمضان، ولا يؤدي الزكاة الشرعية؛ لأن ذلك كان يظهر عند قومه فينكرونه عليه، وهو لا يمكنه مخالفتهم. ونحن نعلم قطعا أنه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن.

فالنجاشي وأمثاله سعداء في الجنة، وإن كانوا لم يلتزموا مع شرائع الإسلام ما لا يقدرون على التزامه[1].

٦- ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في كفارة القتل الخطأ إذا كان المقتول مؤمناً من قوم كفار محاربين: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾، فهذا القتيل خطأ من العدو ولكنه قد آمن، ولم يتمكن من الهجرة وإظهار الإيمان والتزام شرائعه، فسماه الله مؤمنا، وأوجب الكفارة على قاتله خطأً؛ لأنه فعل من الإيمان ما يقدر عليه، وترك ما عجز عنه، وعذره الله بذلك.

وهكذا، كان بمكة جماعة من المؤمنين، يستخفون بإيمانهم وهم عاجزون عن الهجرة، فعذرهم الله وعفا عنهم بقوله: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا﴾.

فعذر الله سبحانه المستضعف العاجز عن الهجرة[2]، فإذا كان العاجز عن الهجرة يعذر بتركها، مع ما يترتب على ذلك من عدم إظهار إيمانه والتزام شرائع دينه، أفلا يعذر العاجز عن القتال أن يتقحم ما لا يستطيع، فيعرض نفسه وغيره للهلكة، ويستثير من عداوة العدو وبطشه ما لم يكن ثائراً؟

(١) «منهاج السنة النبوية» (٥/ ١١١-١١٦).

(٢) «منهاج السنة النبوية» (٥/ ١١٦).

٧- ما حدَّثت به أسماء بنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما قَالُوا لَهَا: مَا أَشَدَّ مَا رَأَيْتِ الْمُشْرِكِينَ بَلَغُوا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَتْ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ قَعَدُوا فِي الْمَسْجِدِ يَتَذَاكَرُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَمَا يَقُولُ فِي آلِهَتِهِمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَامُوا إِلَيْهِ، وَكَانُوا إِذَا سَأَلُوا عَنْ شَيْءٍ صَدَقَهُمْ، فَقَالُوا: أَلَسْتَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا فَقَالَ: «بَلَى». فَتَشَبَّثُوا بِهِ بِأَجْمَعِهِمْ فَأَتَى الصَّرِيخُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقِيلَ لَهُ: أَدْرِكْ صَاحِبَكَ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِنَا وَإِنَّ لَهُ غَدَايِرَ[1]، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ وَهُوَ يَقُولُ: وَيْلَكُمْ! ﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ**﴾، فَلَهَوْا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَقْبَلُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ فَرَجَعَ إِلَيْنَا أَبُو بَكْرٍ فَجَعَلَ لَا يَمَسُّ شَيْئاً مِنْ غَدَايِرِهِ إِلَّا جَاءَ مَعَهُ وَهُوَ يَقُولُ: تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ[2].

إن تخيل هذا المشهد، يبين لنا أي استفزاز كان يتعرض له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنون معه من المشركين. وظاهرٌ أن هذا كان بعد وفاة أبي طالب، وجراءة قريش على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بما لم تكن تجرؤ عليه من قبل، ومع ذلك احتمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذلك بصبر أولى العزم من الرسل. ثم ما أعظم صبر المؤمنين المُسْتَخَفِينَ بإيمانهم، وهم يرون هذا المشهد، فلا يستطيعون دفعاً عن نبيهم الذي فِدَاهُ أرواحهم وآباؤهم وأبناؤهم! حتى إن الصارخ -ولا أحسبه إلا مؤمناً يكتم إيمانه- لا يجد من طريق للنصرة، إلا الفزع إلى أبي بكر، يستصرخه ليدرك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قائلاً: أدرك صاحبك، ولم يقل أدرك رسول الله؛ حتى لا يَظهر ما كان يُخفي من إيمانه.

(١) الغدائر: جمع الغَديرة: وهي الخُصلة من الشّعْر، والغدائر: عقائص الشعر -أي خصالها-، لأنها تعقص وتغدر، أي تترك كذلك زمانا. ينظر: «جمهرة اللغة» (٢/ ٦٣٣)، و«مقاييس اللغة» (٤/ ٤١٤).

(٢) «مسند الحميدي» (٣٢٦)، و«سنن سعيد بن منصور» (٢٨٩٩)، و«مسند أبي يعلى» (٥٢).

ثم انظر كيف تمزع شعر أبي بكر وهو يخلص النبي ﷺ منهم، حتى إنه عندما عاد إلى بيته، كان أهله لا يمسكون بخصلة من شعره إلا انسلت في أيديهم؛ لأن شعره قد تقطع من أصوله، من شدة جذب المشركين له، أثناء تخليصه لرسول الله ﷺ منهم.

فإذا كان هذا ما أصاب أبا بكر من المشركين أثناء تخليصه النبي ﷺ منهم، فكيف بالذي أصاب النبي ﷺ، وهو المقصود بالأذى أصالةً؟

ومع شناعة هذه الجرأة، وفظاعة هذا الإيذاء فإنه ﷺ لم يَسْتَنفِر المسلمين للدفاع عنه، ولم يَسْتَغْضِبهم لغضبه، وإنما علمهم بهديه وهداه القدرة على الصبر الجميل، والانضباط الصارم، وعدم إهدار القوى في ردات فعل غير محسوبة، أو الاستجابة المتعجلة لاستفزازات المشركين وأُحْمُوقاتهم، فكان عاقبة صبرهم نَصراً، وعاقبة بغي المشركين خُسْراً.

٨- ومن ذلك ما حدَّث به عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قُلْتُ: مَا أَكْثَرُ مَا رَأَيْتَ قُرَيْشاً أَصَابَتْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فِيمَا كَانَتْ تُظْهِرُ مِنْ عَدَاوَتِهِ؟ قَالَ: قَدْ حَضَرْتُهُمْ وَقَدِ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ فِي الْحِجْرِ، فَذَكَرُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ، سَفَّهَ أَحْلَامَنَا، وَشَتَمَ آبَاءَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَسَبَّ آلِهَتَنَا، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، أَوْ كَمَا قَالُوا، فَبَيْنَا هُمْ فِي ذَلِكَ، إِذْ طَلَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، فَمَرَّ بِهِمْ طَائِفاً بِالْبَيْتِ، فَلَمَّا أَنْ مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ الْقَوْلِ، قَالَ: وَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى ﷺ، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمُ الثَّانِيَةَ غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى ﷺ، فَمَرَّ بِهِمُ الثَّالِثَةَ، غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، ثُمَّ قَالَ: «**أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ؟ أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ**». قَالَ: فَأَخَذَتِ الْقَوْمَ كَلِمَتُهُ حَتَّى مَا مِنْهُمْ

رَجُلٌ إِلَّا لَكَأَنَّمَا عَلَى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ، حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَطْأَةً قَبْلَ ذَلِكَ يَتَوَقَّاهُ بِأَحْسَنِ مَا يُجِيبُ مِنَ الْقَوْلِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: انْصَرِفْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، انْصَرِفْ رَاشِداً، فَوَاللهِ مَا كُنْتَ جَهُولاً»[1].

وعند تأمل هذا المشهد نرى جليّاً أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في غاية الوثوق بمآلهم الخاسر وهزيمتهم المحققة، فقد أنزل الله عليه وهو في مكة: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، ومع ذلك احتمل هذا الاستفزاز، وكابد كظم الغيظ، حتى قرأ ابن عمرو مضاضة معاناته على صفحة وجهه المقدَّس، فسكت في الأولى، واحتمل في الثانية؛ عسى عقلٌ عَزَبَ عنهم أن يثوب إليهم. فلما أبوا إلا اللجج في إيذائهم، لم يزد على أن توعدهم بما وعده الله به، فأخذ وعيده من قلوبهم مأخذه؛ لما رأوا من قوة يقينه فيما توعد، ولما خبروه من صدقه فيما يقول.

وبرغم هذا اليقين بمآلهم، والقطع بموعود هزيمتهم فإنه لم يبادئهم بما يهيجهم، ولم يستفزهم إلى مواجهة في غير إبانها، وقبل أن تُوطَّأ أسباب الاقتدار لها.

فإذا كان الموعود بالنصر الإلهي يَحْتَمِل هذا الاحتمال، ويتخلق بجميل الصبر، مع أن هذا الموقف كان في السنة الثالثة عشرة من البعثة. فكان معه من المسلمين عدد ليس بالقليل، لكنهم بالنسبة إلى كثرة قريش وقوتها قلة مستضعفة، فلم يُشركهم في الموقف، ولم يستنصرهم، وقد كانوا أسخياء بأرواحهم وأجسادهم لو استنصرهم، ولكنه ادخرهم لما هو أجدى وأبقى، وانتظر موعود الله في إبانه، وعند تهيؤ أسبابه.

٩- قصة المهاجرين إلى مكة بعد البعثة حيث أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها وأسلموا فأمرهم بالخروج واللحاق بقبائلهم، ومن ذلك:

---

(١) «صحيح ابن حبان» (٦٥٦٧).

أ. خبر عمرو بن عَبَسَة السُّلَمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، حينما قدم على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ في مكة. فلما أسلم، وقال للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ: إني متبعك، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ: **«إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ، وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي»**[1].

ب. وقصة إسلام أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ له حينما أسلم في مكة: **«يَا أَبَا ذَرٍّ، اكْتُمْ هَذَا الأَمْرَ، وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ، فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ»**[2].

إن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ قد أمر هؤلاء المؤمنين المهاجرين بالرجوع إلى بلدانهم، ولم يأذن لهم بالهجرة إليه والبقاء عنده في مكة؛ لأن بقاءهم يحتاج إلى إيواءٍ وحمايةٍ من أذى قريش، ولم يكن المسلمون على قلتهم وضعفهم يتمكنون منها، وسيكون بقاؤهم عبئاً على المؤمنين الذين كان كثير منهم لايزالون يستخفون بإيمانهم. ولذا أمرهم بالرجوع إلى قبائلهم حتى يتحقق الظهور، وهو القوة والمنعة والقدرة على الحماية، وهو ما تحقق للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ في المدينة بعد الهجرة. فهاجر إليه نزاع القبائل ليجدوا عنده المأوى والحماية، وذلك لقيام الدولة الإسلامية في المدينة، وتغير موازين القوة لصالح المسلمين بهجرتهم ونصرة الأنصار لهم.

١٠- عَرَضَ الأنصار على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ ليلة العقبة أن يميلوا بأسيافهم على أهل منى، ولا أحسبهم يعنون إلا أهل مكة فيها، فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ: **«لَمْ أُومَرْ بِذَلِكَ»**[3]، فكان عرض القتال والتشوق له موجوداً عند الصحابة، ولكن لم يؤذن لهم لعدم تحقق المصلحة به.

(١) «صحيح مسلم» (٨٣٢).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٤).
(٣) «مسند أحمد» (١٥٧٩٨).

١١- حادثة الهجرة، فقد اتخذ النبي ﷺ كل التدابير لتجنب المواجهة، ولو أراد لجمع إليه هؤلاء المهاجرين، وخرج هو وإياهم وقاتلوا من يعترضهم، ولكنها مواجهة غير متوازنة، ولذا اختار تسريب المهاجرين أفواجاً، وهاجر هو بعدهم مستخفياً.

وتمت هجرة النبي ﷺ وفق السنن الكونية فلم يحمله البراق إلى المدينة كما حَمَله إلى بيت المقدس، وإنما سار نحواً من أسبوعين في طريق غير مطروق تجنباً للرَّصد أمامه والطَّلب خلفه.

ومن دلائل الهجرة على استيعاب الأسباب ومراعاة السنن، أن النبي ﷺ كان يرى المعجزات الخارقة، عندما ساخت قوائم فرس سراقة في الأرض، حتى علم سراقة أنه ممنوع عنهم، وأنه ﷺ كان وهو في هذا الطريق يبشِّر سراقة بسواري كسرى، وكان في غاية الطمأنينة والوثوق وهو في سيره ذلك، حتى وصف سراقة حاله تلك فقال: فتبعتهم حتى دنوت منهم، وكان أبو بكر يلتفت، ورسول الله ﷺ لا يلتفت، حتى سمعت قراءة رسول الله ﷺ[(١)].

فأي سكينة وطمأنينة أعظم من هذا المشهد، أن يدركه الطلب من خلفه، وهو في غاية الطمأنينة، لا يلتفت خلفه، ولا يقطع قراءته؛ وذلك ليقينه بالموعود الإلهي الذي أطلعه الله عليه.

ومع هذا كله استخدم الأسباب؛ فسار في طريق غير مطروق، وهو طريق الساحل، وتجنب الطريق المعتاد الذي يتوقع سلوكه، وكمن في النهار، وسار في الليل، في بعض مراحل الطريق، حتى يُخفي أمرَه.

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦).

١٢- وبعد معركة بدر نزلت سورة الأنفال وفيها قوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ﴾.

إن الآية لم تجعل المواجهة مفتوحة، بأي عدد مع أي عدد، ولكن مع العدد المكافئ ومنتهاه الضِّعْف، فإن زاد فالحال حال ضَعْفٍ لا تكون معها المواجهة واجبة، ولكن قد يختارها المسلمون من غير إيجاب إذا وجدوا الفرصة مواتية، والأسباب مساعدة. وهذا التقدير العددي حينما كان معيار القوة هو الكثرة العددية، وإذا تغيرت معايير القوة فالعبرة بتفوق القوة وليس العدد.

١٣- عندما كان النبي ﷺ في المدينة، كان هناك جماعة من المؤمنين المستضعفين يفتنون في مكة وتصل أخبارهم إلى المدينة، فيتأثر النبي ﷺ بها، ويدعو لهم في صلاته: «**اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ**». يَجْهَرُ بِذَلِكَ، وَكَانَ يَقُولُ فِي بَعْضِ صَلَوَاتِهِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ: «**اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَاناً وَفُلَاناً**». لِأَحْيَاءٍ مِنَ الْعَرَبِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ** ﴾»[1]، فلماذا لم يَسِر النبي ﷺ بأصحابه في مواجهة مع قريش ويخلِّص هؤلاء المستضعفين؟ إن الجواب ليس سِراً غامضاً، ولكنه جَليٌّ ظاهر، وهو أن القوة حينها لم تكن كافية، وأن لمشروع الدعوة الأولوية على مواجهات غير متكافئة.

١٤- وفي معركة أُحد، طرح النبي ﷺ خيار عدم الخروج إلى قريش؛ لأن المواجهة خطرة والعدد كبير، ورجح استدراجهم لدخول المدينة، حتى يتفرَّق الجمع،

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٥٦٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٣).

ويتبدَّد بين النخيل والأحياء. وكان هذا رأي النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ واقتراحه على المسلمين، فلو كان توازن القوة غير معتبر، لم يطرح هذا الخيار أصلاً.

وعندما اختار المسلمون الخروج لأُحد، اتخذ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خطة عبقرية تُحَيد الكثرة العددية للمشركين، فواجههم في وادي قناة، وجعل أُحداً عن يمينه، وجبل الرماة عن يساره بحيث لا يواجههم من المشركين إلا بقدر ما يتسع له بطن الوادي وهو ما يوازن عددهم، وتبقى الكثرة العددية للمشركين غير مفعلة، وبذا تحقق في أول المعركة النصر الذي كاد أن يكون نهائياً، لولا نزول الرماة من الجبل. ثم لما وقعت الهزيمة، ورأى النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ منهم من الحماس والاستعداد، ما يؤهلهم لخوض المعركة، انحاز بالمسلمين إلى الشِّعب وهو مكان ضيق داخل جبل أُحد لا يمكن النفوذ إليه إلا من طريق واحد فكأنهم في قلعة محصَّنة من ثلاث جهات، وعرف المشركون أنهم لن يستطيعوا الدخول بكل الجيش والانتشار في هذا الشِّعْب، فاختاروا الانسحاب السريع حتى لا يفلت منهم النصر المختطف الذي حقَّقوه.

وعندما اهتز المسلمون لمصيبتهم في أُحد، وقتل سبعين من أعز شهدائهم، وذهلوا، وتساءلوا: أَنَّى هذا؟ تنزَّل القرآن موجهاً رسالة مفادها أن هناك سننا قد خلت، وأن هذه السنن لن يوقفها الله عَزَّوَجَلَّ إكراماً للمسلمين: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾.

فأول إشارة للسنن في ترتيب القرآن كانت بين يدي الحديث عن معركةِ أحد ومصيبةِ المسلمين التي أصابتهم فيها.

ومع أن الذين عصوا هم مجموعة قليلة من مجموع الجيش، كانوا نحواً من أربعين رجلاً من الرماة على جبل عينين (الرماة)، بينما المصيبة عمت الجيش كله بما فيهم رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وهؤلاء كلهم لم يعصوا ومع ذلك نسبت المعصية للجيش كله:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم﴾، لأن السنة الماضية أن التفريط في حماية ثغرات الجيش من أي فئة منه تعود مصيبتها إلى الجيش كله، وأن عاقبتها ستمضي على جيش المسلمين وعلى قائدهم النبي الكريم، فإنه قد ناله من مصيبة أُحد الشيء الكثير: كُسرت رَباعيته[1]، وشُجَّ جبينُه، وسال الدم على وجهه المقدَّس[2].

لقد كان علاج صدمة الهزيمة، هو إدراك السنن: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، بموجب نظرة شمولية منهجية استنباطية، تنسجم وقوانين العقل التي أكرمنا الله بها، لكي نستنبط من خلال الوقائعِ والجزئياتِ السننَ والقوانينَ، وهذا قوام العِلْم كله[3].

فهذه الآية في سياقها مع المصيبة في معركة أُحد تُبَيِّنُ لنا أننا نحتاج إلى أن نستوعب مبدأ السُّننية، من أجل إعادة الوعي به، والعمل بمقتضياته. ذلك أن كثيراً من المسلمين يظنون أنهم بمجرد أن يكونوا على الحق فلابد أن يتحقق لهم النصر، وأن المسلمين سينتصرون لأنهم مسلمون، وأن أعداءهم سيهزمون لأنهم كافرون، في غيبة وعيٍ عن عالم السنن والأسباب، والجهاد والاجتهاد في تحصيلها، وتعلقٍ بعالم المعجزات والكرامات واستنامةٍ إليها.

١٥- وبعد معركة أحد حدثت حادثة بئر مَعُونة[4]، حيث قَتَل عامرُ بن الطُّفيل سبعين من خيرة الصحابة، وهم القراء عند بئر معونة، ولم يحزن النبي ﷺ على أحد كحزنه

---

(١) الرَّبَاعِيَة: هِيَ السِّنُّ الَّتِي تَلِي الثَّنِيَّةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِلإِنْسَانِ أَرْبَعُ رَبَاعِيَاتٍ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٨١).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٠٧٣)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٣).

(٣) ينظر: «القرآن والعقل» أبو زيد المقرئ الإدريسي (٣٨-٤١).

(٤) موضع بين جبال يقال لها أبلى في طريق المصعد من المدينة إلى مكة. ينظر: «معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية» (ص ٥٢).

عليهم[1]، ومنازل عامر وقبيلته تبعد عن المدينة نحواً من (١٨٠ كم)، ومع ذلك لم يُرسل النبي ﷺ سرية تأخذ بثأرهم، ولم يُسَيِّر جيشاً إليهم؛ لأنها كانت بعد معركة أُحد، وكان المسلمون في حال من الضعف لا تمكنهم من ذلك.

ولكن عندما قُتِل رجل واحد من المسلمين -وهو رسول رسول الله ﷺ إلى بُصْرى التي تبعد عن المدينة نحواً من (١٠٠٠ كم)- أرسل النبي ﷺ إليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف[2]، **فما السبب في تسيير جيش للثأر لرجل والكف عن الثأر لسبعين؟**

والجواب: هو تغير حال المسلمين من الضعف إلى القوة، فمعركة مُؤْتة كانت بعد الحديبية وبعد الهدنة مع قريش وأمن الجزيرة وظهور قوة المسلمين، بخلاف الحال عند مصاب بئر معونة التي كانت بعد معركة أحد، والمسلمون في حال قلة وضعف، وبعد مصيبة وقرح.

١٦- وفي معركة الخندق كان عدد المسلمين (٣،٠٠٠)، وعدد المشركين (١٠،٠٠٠) وهي ذات النسبة في بدر، فاختار النبي ﷺ عدم المواجهة؛ لأن القوة غير متكافئة وتحصَّن بالخندق، ورفض الخروج لمنازلة المشركين، واستنزفهم بطول الحصار حتى رجعوا خائبين، مع أن أشد شيء على العربي أن تدعوه إلى مبارزة أو منازلة ثم لا يبرز لك، ولكن النبي ﷺ لم يستجب لهذا الاستفزاز.

(١) «صحيح البخاري» (٣١٧٠).

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٢/ ٩٧).

١٧- في معركة مُؤْتة[١]، عندما وصل جيش المسلمين إلى مَعَان[٢]، وعلموا بكثرة عدوهم اختلفوا في دخول المعركة، وبقوا في مَعَان ليلتين يتشاورن في أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ، نخبره بعدد عدونا، فإمّا أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له[٣]. وهذه المشاورة التي استمرت يومين تُبَيِّنُ أن عدد العدو كان مفاجئاً لهم، ولم يكن في حسبانهم؛ لذا رأوا استشارة النبي ﷺ في هذا الظرف المفاجئ.

فشجَّع عبد الله بن رواحة الجيش وقال: يا قوم! والله إنّ التي تكرهون للّتي خرجتم. تطلبون الشهادة! وما نقاتل النّاس بعدد ولا قوّة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدّين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنّما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة.

وأحدثت كلماتُه أثرها فدبّ الحماس في الجيش، وفقدت آراء المتريثين قوتها[٤].

ودارت المعركة بغاية الاستبسال من جيش المسلمين، وفي صورة رائعة من الإقدام والتضحية، ولكن النتيجة كانت هي المتوقعة من معركة يدخلها جيش صغير في مواجهة جيش كبير هائل العدد والعدة.

فقُتِلَ قادة الجيش الثلاثة على التوالي زيد، وجعفر، وعبد الله بن رواحة، فأخذ الراية ثابت بن أقرم، ونادى في الناس أن يصطلحوا على قائد جديد، فاصطلحوا على خالد بن الوليد، فأخذ الراية وقد أدرك خطورة الموقف، فأعاد تنظيم الجيش،

(١) موضع في الأردن جنوب مدينة الكرك يبعد عنها (١١ كم)، وفيه وقعت معركة مؤتة وإلى جواره قرية المزار وبها قبور الصحابة شهداء مؤتة. ينظر: «معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية» (ص٣٠٤).

(٢) هي مدينة في الأردن تبعد عن عَمَّان عاصمة الأردن (٢٢٦ كم) إلى جهة الجنوب، ينظر: «معجم البلدان» (٥/ ١٥٣).

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٣٣٧).

(٤) «عصر السيرة النبوية» د. أكرم ضياء العمري (١٩٦)، و«فقه السيرة» للغزالي (١٠٣).

ودافع العدو، وانحاز بالمسلمين، وتمكَّن من القيام بانسحاب منظَّم لم يَفقد فيه إلا القليل من جنده. ويعتبر هذا الانسحاب المنظَّم فتحاً عظيماً؛ حيث تمكن خالد من استنقاذ الجيش من هذا المأزق الخطير، بعد أن كان عرضة للإبادة الماحقة من هذه الألوف الهائلة، وكأنما استل جيشه من بين أنياب الأسد[١].

وقد سمى النبي ﷺ هذا الانسحاب فتحاً، فعن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ نعى زيداً، وجعفراً، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «**أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ**». وعيناه تذرفان: «**حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ، حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ**»[٢].

وعندما عَيَّرهم بَعضُ أهل المدينة بأنهم الفُرَّار دافع عنهم النبي ﷺ بقوله: «**بَلْ هُمُ الْكُرَّارُ إِنْ شَاءَ اللهُ**»[٣].

١٨- ومن ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وكَانَ فِي سَرِيَّةٍ مِنْ سَرَايَا رَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَ: فَحَاصَ[٤] النَّاسُ حَيْصَةً، فَكُنْتُ فِيمَنْ حَاصَ. فَلَمَّا بَرَزْنَا قُلْنَا: كَيْفَ نَصْنَعُ وَقَدْ فَرَرْنَا مِنَ الزَّحْفِ وَبُؤْنَا بِالْغَضَبِ؟ فَقُلْنَا: نَدْخُلُ الْمَدِينَةَ فَنَتَثَبَّتُ فِيهَا وَنَذْهَبُ وَلَا يَرَانَا أَحَدٌ. فَدَخَلْنَا فَقُلْنَا: لَوْ عَرَضْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِنْ كَانَتْ لَنَا تَوْبَةٌ أَقَمْنَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ ذَهَبْنَا. فَجَلَسْنَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ فَقُلْنَا: نَحْنُ الْفَرَّارُونَ فَأَقْبَلَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «**لَا؛ بَلْ أَنْتُمُ الْعَكَّارُونَ**»[٥]. فَدَنَوْنَا فَقَبَّلْنَا يَدَهُ، فَقَالَ: «**إِنَّا فِئَةُ الْمُسْلِمِينَ**»[٦].

(١) «السيرة النبوية الصحيحة» (٢/ ٤٦٨).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٢٦٢).
(٣) «مسند البزار» (٥٣٦٨).
(٤) حاص الناس: أي: جَالُوا جَوْلة يَطْلُبون الفِرَار. ينظر: «النهاية» لابن الأثير (١/ ٤٦٨).
(٥) أي: أَنتُم الكَرَّارُون، والعَكْرُ: الانْصراف بعد المُضيّ. ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (١/ ٣٣١).
(٦) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٣٦٨٦)، و«سنن أبي داود» (٢٦٤٧).

وفي هذا الحديث يظهر أن النبي ﷺ لم يعاقبهم على الانسحاب أمام قوة الأعداء، ولكنه ﷺ وصفه بأنه كَرَّةٌ وليس فراراً، فقال: «**بَلْ أَنْتُمُ الْعَكَّارُونَ**».

لأن المطلوب ليس القتال على أي حالٍ كانوا، ولو كان في ذلك تعريضهم للهلكة، وإسعادُ الأعداء بإفناء جيش المسلمين.

إن استبقاء الجيش وإعداده لمهمات الحياة الأخرى أمرٌ له أهميته القصوى واعتباره البالغ، ولذا قدَّم ﷺ العذر لهم ولم يطلبه منهم.

ولاحظ الحفاوة النبوية بهم، والعاطفة الأبوية التي غمرتهم من رسول الله ﷺ، حتى أكبوا على يده المقدَّسة يلثمونها.

ومثل ذلك قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بلغه أن قوما صبروا بأذربيجان حتى قتلوا، فقال عمر: لو انحازوا إلي لكنت لهم فئة[1]. فلم يكن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرضى لهم تعريضهم أنفسهم للإبادة، ورأى أن انحيازهم وانسحابهم، واستبقاء أنفسهم أولى، فمواقف الجهاد أكثر، ومشروع الإسلام أكبر.

١٩- وعندما حاصر المصطفى ﷺ أهلَ الطائف كان معه جيش كبير يتجاوز العشرة آلاف، ولكن أهل الطائف كانوا مُتَمنِّعين في حصونهم، فلم يتمكن المسلمون منهم، وأصابوا المسلمين بجراحات، فقال النبي ﷺ: «**إِنَّا قَافِلُونَ غَداً إِنْ شَاءَ اللهُ**». فقال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: لا نبرح أو نفتحها، فقال النبيُّ ﷺ: «**فَاغْدُوا عَلَى الْقِتَالِ**». فغدوا فقاتلوهم قتالا شديداً، وكثرت فيهم الجراحات، فقال رسولُ الله ﷺ: «**إِنَّا قَافِلُونَ غَداً إِنْ شَاءَ اللهُ**». فسكتوا، فضحك رسول الله ﷺ[2].

---

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٣٦٨٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٠٨٦)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٨).

إن الصحابة كانوا حينها أكثر عديداً، ولكن أهل الطائف أقوى بحكم تحصنهم ولذا لم يَسْتنزِف النبي ﷺ قوة أصحابه في قتال قوم مستحكمين في حصونهم ورأى القفول عنهم.

٢٠- قال تعالى مخاطباً نبيه والمؤمنين المجاهدين معه مبيناً صفة صلاة الخوف في مواجهة العدو: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾.

فأمر بحمل السلاح أثناء إقامة الصلاة: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾؛ وذلك مبالغةً في الحذر والاستعداد للعدو. والأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف، محمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية[(١)].

فإذا كانت الصلاة وهي أقرب أحوال العبد إلى ربه: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ»[(٢)]، يؤمر فيها العبد بأخذ الحذر، وحمل السلاح، والأخذ بالأسباب الاعتيادية، وعدم انتظار الخوارق الإلهية، فكيف نظن أنه بمجرد إطلاق مشروع القتال باسم الجهاد، سوف تخرق نواميس الكون، ويتعطل عالم الأسباب، وتتوالى الخوارق والمعجزات، دون حيطة وحذر، ودون سلاح واستعداد بالغ؟!

ثم قال تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾، لقد كان لدى الصحابة سلاح وأمتعة، هي مطمع للكفار لو غفلوا عنها.

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٥٧).
(٢) «صحيح مسلم» (٤٨٢).

فكيف نخوض المعركة بلا سلاح ولا أمتعة؟ إلا سلاحاً نشتريه من بعض أعدائنا بشروطهم؟

إنهم ما داموا هم الذين يبيعونك السلاح، فلن يبيعوك السلاح الذي يحقق انتصارك، ولكن السلاح الذي يطيل استنزافك.

٢١- والمدونة الفقهية حافلة بأحكام مترتبة على اعتبار توازن القوة في المواجهة وهي ما يسمى بأحكام الاستضعاف:

أ- فأحكام الهجرة هي نتيجة مواجهة غير متكافئة، يختار فيها المسلمون تجنب المواجهة، بترك ديارهم وأموالهم، وإحراز دينهم.

ب- وأحكام الإكراه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ هي نتيجة مواجهة غير متكافئة، يختار فيها المسلم تجنب المواجهة، وكف شر القوة الظالمة، بإعلان الكفر.

ج- وأحكام التَّقِيَّة عند الخوف، هي مداراة المؤمنين للكافرين؛ اتقاء بطشهم الذي لا يستطيعون مدافعته، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾.

د- وأحكام الإحصار في الحج والعمرة، هي من أحكام عدم توازن القوة؛ حيث يختار الحجاج والمعتمرون التحلل مما أحرموا به من حج أو عمرة، إذا صدهم عدو لا يستطيعون دفعه، وهو ما فعله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في الحديبية، وهَمَّ بفعله ابن عمر عندما توجَّه إلى مكة أثناء حصار الحَجَّاج لها[١].

(١) «صحيح البخاري» (١٦٤٠).

هـ- وأحكام الاستضعاف[1] بعامة هي تَجَنبٌ لمواجهة غير متكافئة إلى ما شرع الله من التخفيف ورفع الحرج.

٢٢- في قصة الحديبية مشاهد عظيمة، ودروس بليغة، ولابد قبل الحديث عن المشهد أن تضعه تحت المجهر المكبر وتنظر إليه ببصر البصيرة لترى الصحابة في المدينة يتلقون بشرى النبي ﷺ لهم بدخول المسجد الحرام: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾.

فيتهيأون للعمرة، وقد تلقوا هذه البشرى بيقين المؤمنين، ويا لله لأشواق الصحابة، وهم يتوجهون إلى مكة محرمين، يسوقون هديهم، ويلهجون بتلبيتهم!

ويا لله لحال المهاجرين منهم! أَيُّ شوقٍ كان في قلوبهم، وأي لهفة كانت في نفوسهم، وأي ظمأ كان في عيونهم التي ستتروى من رؤية الكعبة التي فارقوها ثم لم يروها منذ ست سنين؟!

ما حالهم وهم يسوقون الهدي مقلداً، ويقطعون الأرض خبباً، تسابقهم الأشواق واللهفة حتى إذا أشرفوا على مكة وصاروا على حدود حرمها عرضت لهم قريش لتصدهم عن دخول مكة؟

وكانوا على أتم الأهبة والاستعداد للقتال إن اضطروا إليه، فمعهم جمع لم يجتمع لهم في بدر ولا أحد، ومعهم من السلاح والعتاد ما يجعل رسل قريش إذا قدموا عليهم لا يعرفون بعضهم من بعض لما لبسوه من الدروع والأقنعة والحديد.

(١) ينظر: «الاستضعاف وأحكامه في الفقه الإسلامي» د. زياد عابد مشوخي.

وبينما هم يكابدون الشوق واللهفة، ويتوثبون لدخول مكة التي دنت منهم ودنوا منها، فهم الآن على مشارفها، ويتعجلون المناجزة إذا أُلجئوا إليها فقد كانوا الطرف الأقوى لأن قريشاً قد نَهَكتها الحرب، وأضر بها انقطاع التجارة بعد بدر، فبيناهم على هذا التحفز والتشوق إذا بالوحي ينزل على النبي ﷺ يأمره بالكف عن القتال واختيار الصلح، فاختار ما اختار له ربه عن رضاً وتسليم، أما المسلمون فقد كانت صدمة صادمة لهم، كيف يرجعون عن مكة وهم الآن على مشارفها، وما كانوا في حال قلة ولا ضعف، ولو يستطيعون رد أمر رسول الله لفعلوا، ولذا راجعوا النبي ﷺ في ذلك، فقال: «**إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي**»[1].

وسلَّم المسلمون لأمر الله ورسوله فحلوا إحرامهم ونحروا هديهم، ورجعوا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة يكابدون أشواقهم ولهفتهم وحرقة قلوبهم.

ولم يُبقِ الله حكمته في أمره هذا سراً مكتوماً لا تُعلم حكمته، ولكن نزلت الآيات قبل أن يصلوا إلى المدينة، تُفْشِي السر، وتُعلِّل الأمر، وتُبَيِّنُ الحكمة من كَفِّ الله عَزَّوَجَلَّ يد نبيه وأصحابه عن قريش، والتي نجد عند استعراض الآيات التي نزلت فيها دروسا بليغة.

فأولها: عند قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾، يدل على أن هذا أمرُ الله عَزَّوَجَلَّ وحكمته، وتقديرُه وتدبيرُه، بكف أيدي المؤمنين عن قريش بعد أن أظفرهم عليهم بظهور قوتهم وضعف قوة قريش، وذلك لحكمة عظيمة تُبَيِّنُها الآيات بعد بجلاء ووضوح.

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

وثانيها: عند قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾، وهذه الآية تبين أن هؤلاء المشركين ارتكبوا جريمة عظيمة يستحقون القتال عليها، وهي الصَّدُّ عن المسجد الحرام، ومنع الهدي أن يبلغ محله، ناهيك عن جرائمهم السابقة من إخراج المسلمين من مكة، وقتالهم إياهم في بدر وأحد والخندق.

وهذا كله يبين أنهم مستحقون للقتال، وأن ما فعلوا مع الكفر جريمة عظيمة تستحق المدافعة والمقاتلة.

ثالثها: ثم بين سبب كف نبيه عن القتال، مع استحقاق هؤلاء المشركين له، بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فبين الله أنه كف يد نبيه وأيدي المؤمنين معه عن قتال قريش لأن هناك فئةً قليلةً مستضعفة ببطن مكة، لا المسلمون يعلمونَهم، ولا الكفار يعلمونهم، وأنهم عرضة لأن يذهبوا ضحية الاشتباك في هذه المعركة لو نشبت[1].

ورابعها: عند قوله: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾، فهؤلاء القلة المستضعفة ببطن مكة لا يعلم بإيمانهم إخوانهم المؤمنون، ولا أعداؤهم المشركون، فيا لله ماذا أظهروا من دينهم يا ترى! إذا كان المسلم لا يعلم بإسلامهم والكافر لا يعلم بإسلامهم، وكل ذلك بسبب الاستضعاف الذي سوغ لهم التظاهر بالكفر اتقاءاً لأذى الكفار وبطشهم.

وخامسها: عند قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ﴾، أي لو تميز هؤلاء المؤمنون عن الكفار، ففارقوهم وانفصلوا عنهم: ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي لحلت العقوبة الماحقة بهؤلاء الكفار، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ لم يشأ أن يعذبهم بعذاب عام يستأصلهم؛ رحمة بالمؤمنين المستضعفين بينهم.

(١) ينظر: «قواعد الدعوة إلى الله» د. همام سعيد.

إن الله عَزَّوَجَلَّ قادر على أن يعاقبهم عقاباً أليماً خاصّاً يستأصلهم ولا ينال المؤمنين ضرره؛ ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ فهو قادر على أن ينزل عقوبة تخص الكافر وينجو منها المؤمن. ولكن الله عَزَّوَجَلَّ كف يد نبيه؛ رعاية لسنة الأسباب التي جعلها نظاماً لهذا الكون، فكانت رعاية نظام الأسباب والسنن التي جعلها لهذا الكون مقدَّمةً على إحداث معجزة خارقة يموت فيها الكافر ويبقى المسلم. ولذلك عندما يرتفع التكليف ويُرفع القرآن، تأتي ريح طيبة تقبض أرواح المؤمنين، وتترك الكفار يتهارجون تهارج الحُمُر[1]؛ لأن التكاليف ارتفعت، ونظام الكون يوشك على الانتقاض لقرب قيام الساعة، أما في زمن التكليف فكل شيء يسير وفق قانون الأسباب الذي جعله الله نظاماً لهذا الكون.

فانظر -يا رعاك الله- كيف كفَّ الله يد نبيه وخِيرةِ الخلق معه، مع شدة شوقهم لمكة وقد وصلوا مشارفها محرمين بالعمرة، والهدي معهم معكوفاً أن يبلغ محله، ثم يعودون وهم يكابدون شوقَهم ولهفتَهم وحسرةَ قلوبهم.

وأن ذلك كله كان حفاظاً على أرواح فئة قليلة من المؤمنين مستخفية بإيمانها ببطن مكة[2].

فأي صيانة لأرواح المسلمين ورعايةٍ لحرمةِ دمائهم أبلغ من هذا. وأين هذا الهدي الرباني في تعظيم شأن أرواح المسلمين وصيانتهم من التعرض لأسباب التهلكة من هذه المجازفات باسم الجهاد، والتي يكون أول ضحاياها هم المستضعفون العزل من المسلمين الذين: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾؟!

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٩٣٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣٠٦).

فإذا هم بعد السكينة في دورهم، والتعبد في مساجدهم، والتعلم في مدارسهم قد صاروا أشلاء ممزقة، قضت عليهم أشدُّ أسلحة الدمار فتكاً، ومن نجا منهم تفرقوا بدداً بين الملاجئ والمنافي.

والأعجب ألا تسمع بعد ذلك كلمة ندم، أو اعترافاً بخطأ ممن تسبب عليهم بذلك، وإنما التبرير والتعذير، والتنصل من كل مسؤولية، والمتاجرة بدمائهم، والمزايدة بمصائبهم، حتى سمعنا بعض هؤلاء المحرضين يهون من كل ذلك قائلاً: وكم الذين ماتوا ضحايا حوادث السيارات، وكم الذين ماتوا من نزلات البرد أو ضربات الحر!! ولا أدري هل يتقبل هذا المستهتر بالدماء هذه الحجة لو قُتل ولده أو والده ثم قيل له: افترض أن سيارة قد دهسته؟!

أي منطق وأي تبرير هذا؟! وهل نلوم أعداءنا بعد ذلك إذا استهانوا بدماء إخواننا المسلمين بعد أن استهنا نحن بها، وعرضناها لهذه الهلكات؟ لقد هانوا علينا فهانوا على أعدائنا.

٢٣- ومن الدلائل على رعاية سنن الأسباب ما حدَّث به سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو من القلة الذين ثبتوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يوم أحد حين انكشف المسلمون، قال: لَقَدْ رَأَيْتُ يَوْمَ أُحُدٍ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ يَسَارِهِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ، يُقَاتِلَانِ عَنْهُ كَأَشَدِّ الْقِتَالِ مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلَا بَعْدُ[(١)]، وحمل العلماء هذا الحديث على أن هذين الرجلين كانا ملكين نزلا يقاتلان عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ولقد كان يمكن لملَك واحد منهم أن يحمل جيش المشركين كلَّه على جناحه ثم يقلب به الأرض، كما فعل جبرائيل بقرى قوم لوط. وكان يمكن لملَك واحد منهم أن يصيح بالمشركين صيحة، تقطع نياط قلوبهم في أجوافهم، كالصيحة التي أهلكت ثمود. ولكن الله عَزَّوَجَلَّ

(١) «صحيح البخاري» (٤٠٥٤)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٦).

جعل هذين الملكين بصورة بشرين يقاتلان عن رسول الله ﷺ، كما يقاتل البشر رعاية لسنة الأسباب، حتى تجري المعجزة الخارقة وفق نظام الأسباب وسننها، والتي جعلها الله تعالى لعمارة الكون انتظامه.

وكل هذه دلائل، تبين لنا أننا نعيش في قتالنا وأمور حياتنا، وفق عالم الأسباب، وليس وفق عالم المعجزات.

إن المعجزات التي تأتي مع الأنبياء حق، ولكنها الاستثناء الذي يؤكد القاعدة، ويثبت النبوة. وأما القاعدة المطردة، فهي الجريان مع السنن الكونية، كما جعلها الله وأجراها.

فمعجزات الأنبياء استثناء عارض، ينتهي بانتهاء غرضه وهو إثبات النبوة. وقد انتهت فعليا كل المعجزات بوفاة آخر نبي، وهو الرسول ﷺ. وبما أنها خرق للسنن الجارية، فهي استثناء يؤكد القاعدة ولا ينقضها[(١)].

٢٤- ومن الأدلة الظاهرة على اعتبار توازن القوة الأحاديث التي وردت عن النبي ﷺ في الصلاة مع الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، فقال ﷺ: «**إِنَّهُ سَتَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ مِيقَاتِهَا، وَيَخْنُقُونَهَا إِلَى شَرَقِ الْمَوْتَى، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ قَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ، فَصَلُّوا الصَّلَاةَ لِمِيقَاتِهَا، وَاجْعَلُوا صَلَاتَكُمْ مَعَهُمْ سُبْحَةً**»[(٢)]، وقد طبق العلماء رحمهم الله هذه الوَصاة النبوية في عهد أمراء بني أمية، فمن ذلك:

---

(١) «القرآن والعقل» (٣٨-٤١).

(٢) «صحيح مسلم» (٥٣٤).

وقوله: «شَرَق الموتى»، مأخوذ من قولهم: شَرِقَ الميت بريقه، إذا لم يبق بعده إلا يسيراً ثم يموت، أي أنهم يؤخرون الصلاة إلى آخر وقت النهار لأن الشمس إنما تبقى قليلاً ثم تغيب، وقوله: «سُبْحة» أي نافلة وتطوعاً. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (٥/ ١٦).

عن العلاء بن عبد الرحمن، أنه دخل على أنس بن مالك في داره بالبصرة، حين انصرف من الظهر، وداره بجنب المسجد، قال: فلما دخلنا عليه، قال: أصليتم العصر؟ فقلنا له: إنما انصرفنا الساعة من الظهر، قال: فصلوا العصر، فقمنا، فصلينا، فلما انصرفنا، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تِلْكَ صَلاَةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَي الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعاً، لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً**»[١].

فلم يأمرهم بالخروج على هؤلاء الأمراء ومواجهتهم بما لا يستطيعون.

وعن سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ: كَانُوا يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ فِي أَيَّامِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَيَسْتَحْلِفُونَ النَّاسَ أَنَّهُمْ مَا صَلَّوْا فَأُتِيَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي زَكَرِيَّا فَاسْتُحْلِفَ أَنَّهُ مَا صَلَّى فَحَلَفَ مَا صَلَّى وَقَدْ كَانَ صَلَّى، وَأُتِيَ مَكْحُولٌ فَقِيلَ لَهُ فَقَالَ: فَلِمَ جِئْنَا إِذن؟[٢].

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ قَالَ: رَأَيْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ وَعَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ، وَأَخَّرَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الصَّلَاةَ، فَرَأَيْتُهُمَا يُومِئَانِ فِي وَقْتِ الصَّلَاةِ ثُمَّ جَلَسْنَا حَتَى صَلَّيَا مَعَهُ[٣].

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُهَاجِرٍ قَالَ: كَانَ الْحَجَّاجُ يُؤَخِّرُ الْجُمُعَةَ فَكُنْتُ أُصَلِّي أَنَا وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ الظُّهْرَ ثُمَّ نَتَحَدَّثُ وَهُوَ يَخْطُبُ ثُمَّ نُصَلِّي وَنَجْعَلُهَا نَافِلَةً[٤].

وعن مُحَمَّدِ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنِ الزِّبْرِقَانِ قَالَ: قُلْتُ: لِشَقِيقٍ: إِنَّ الْحَجَّاجَ يُمِيتُ الْجُمُعَةَ، قَالَ: تَكْتُمُ عَلَيَّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: صَلِّهَا فِي بَيْتِكَ لِوَقْتِهَا وَلَا تَدَعِ الْجَمَاعَةَ[٥].

---

(١) «صحيح مسلم» (٦٢٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٦٢٢).

(٣) «مصنف عبد الرزاق» (٣٧٩٦)، و«الاستذكار» (١/ ٢٢).

(٤) «مصنف ابن أبي شيبة» (٥٤٨٧)، و«الاستذكار» (١/ ٢٢).

(٥) «الاستذكار» (١/ ٢٢).

وعن مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: أَطَالَ بَعْضُ الْأُمَرَاءِ الْخُطْبَةَ، فَاتَّكَيْتُ يَدَيَّ حَتَّى أَدْمَيْتُهَا، ثُمَّ قُمْتُ وَأَخَذَتْنِي السِّيَاطُ، فَمَضَيْتُ، فَخَرَجْتُ[1].

وعَن ابن جُرَيْجٍ عن عَطَاءٍ قَالَ: أَخَّرَ الْوَلِيدُ الْجُمُعَةَ حَتَّى أَمْسَى، فَجِئْتُ فَصَلَّيْتُ الظُّهْرَ قَبْلَ أَنْ أَجْلِسَ ثُمَّ صَلَّيْتُ الْعَصْرَ وَأَنَا جَالِسٌ إِيمَاءً وَهُوَ يَخْطُبُ.

وإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ عَطَاءٌ خَوْفاً عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْقَتْلِ[2].

إن هذا الأمر النبوي باحتمال هذا الجور من الأمراء في شأن شعيرة هي أعظم شعائر الإسلام الظاهرة، وهي عمود الإسلام الذي قال فيه ﷺ: «**الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»[3]، وإنما كان ذلك حماية للأمة من مغبة مواجهةٍ بين الحاكم الجائر والعُزَّل من العامة والعلماء، وما يحدثه ذلك من بغي السلطان وفتنة العامة. ولذا كان عطاء عالم مكة ومفتيها يصلي إيماء حتى لا يخرج وقت الصلاة، ويفسر ذلك الراوي عنه فيقول: إنما فعل ذلك عطاءُ خوفاً من القتل.

إن أركان الإسلام كلّها قد اشتُرِطَت فيها الاستطاعة، وعُذِرَ فيها بالعجز، فالتوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله يجوز الجهر بنقيضها عند الإكراه، والصلاة يقول فيها النبي ﷺ: «**صَلِّ قَائِماً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِداً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ، فَعَلَى جَنْبٍ**»[4]، والزكاة لا تؤخذ ممن لم يملك نصاباً، والصوم يعذر فيه المسافر والمريض: ﴿**فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾، والحج على من استطاع إليه سبيلا.

---

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٥٤٨٤)، و«الاستذكار» (١/ ٢٢).

(٢) «فتح الباري» (٢/ ١٤).

(٣) «مسند أحمد» (٢٢٩٣٧).

(٤) «صحيح البخاري» (١١١٧).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يعتبر الجهاد أعلى مراتبه ربط بالاستطاعة: **«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»**(1).

فلا أعجبَ من أن تكون القدرة مشترطة في أركان الإسلام، ثم لا تُشترط في ذروة سنام الإسلام وهو الجهاد.

٢٥- إن مراعاة قانون الأسباب موجودة في كل شرائع الدين وأحكامه، انظر إلى الرجل الذي جاء بِمِثْلِ بَيْضَةٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَصَبْتُ هَذِهِ مِنْ مَعْدِنٍ، فَخُذْهَا فَهِيَ صَدَقَةٌ، مَا أَمْلِكُ غَيْرَهَا، فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ رُكْنِهِ الْأَيْمَنِ، فَقَالَ: مِثْلَ ذَلِكَ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ رُكْنِهِ الْأَيْسَرِ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ أَتَاهُ مِنْ خَلْفِهِ، فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَحَذَفَهُ بِهَا، فَلَوْ أَصَابَتْهُ لَأَوْجَعَتْهُ، أَوْ لَعَقَرَتْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَأْتِي أَحَدُكُمْ بِمَا يَمْلِكُ، فَيَقُولُ: هَذِهِ صَدَقَةٌ، ثُمَّ يَقْعُدُ يَسْتَكِفُّ النَّاسَ، خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى»**(2).

ولما مرض سعد بن أبي وقاص قال لرسول الله ﷺ: إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الوَجَعِ وَأَنَا ذُو مَالٍ، وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: «**لَا**». قال: فَقُلْتُ: بِالشَّطْرِ؟ فَقَالَ: «**لَا**». ثُمَّ قَالَ: **«الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»**(3).

---

(١) «صحيح مسلم» (٤٩).

(٢) «سنن أبي داود» (١٦٧٣).

(٣) «صحيح البخاري» (١٢٩٥)، و«صحيح مسلم» (١٦٢٨).

فإذا كان يراعى في شأن المال القدرة والإمكان أفلا يراعى ذلك فيما هو أهم وأعظم، وأغلى وأَعْلى، وهو الدماء والأعراض والأوطان؟!



تطبيقات تاريخية

كما تضافرت دلائل الكتاب ووقائع السيرة على اعتبار توازن القوى عند المواجهة، فإن وقائع التاريخ أيضاً تتابعت على اعتبار ذلك. ولذلك تكون الأناة وعدم التعجل حكمة وصبراً، والانسحاب من المعركة غير المتوازنة فتحاً ونصراً. وإن مكابرة هذا القانون السببي، إنما تعني تكثير الضحايا، ومضاعفة الخسائر، وإهدار الفرص المتاحة، وتفويت ما لا يمكن تداركه.

على أن الذي ينبغي أن نكون على ذكر منه، أن الوقائع والأحداث التاريخية ليست دليلاً يستدل به، ما لم تكن وقائع نبوية. أما حوادث التاريخ، فينظر فيها للاعتبار، وقراءة الحدث، وموقف أهل العلم منه.

ومن مشاهد ذلك:

١ - حادثة جسر أبي عبيد التي قتل فيها أمير المسلمين وخلق كثير منهم، فقد وصل جيش الفرس إلى المسلمين وبينهم النهر وعليه جسر فأرسلوا إلى المسلمين: إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم.

فقال المسلمون لأميرهم أبي عبيد: مُرْهم، فليعبروا هم إلينا. فقال ما هم بأجرأ على الموت منا. وكان هذا خطأ استراتيجيّاً في المعركة، ثم اقتحم إليهم فاجتمعوا في مكان ضيق، وصار المسلمون محصورين بين الفرس وبين النهر. وكانت الفرس قد أحضرت معها الأفيال ووضعت عليها الأجراس، فجفلت خيل المسلمين واقتتلوا قتالاً شديداً لم يُعهد مثله، والمسلمون في نحو من عشرة آلاف، فقُتِل قائدهم أبو عبيد وسبعة من قواد المسلمين بعده على التتابع، حتى انتهت القيادة إلى المثنى بن حارثة، وساقت الفرس خلفهم فقتلوا بشراً كثيراً، وانكشف الناس فكان أمراً بليغاً، وجاؤوا إلى الجسر فمر بعض الناس. ثم انكسر الجسر فتحكم فيمن وراءه الفرس، فقُتل من المسلمين بشر كثير، وغَرِق في الفرات نحوٌ من أربعة آلاف، ومن الناس من ذهب في البرية لا يُدرى أين ذهب، ومنهم من رجع إلى المدينة النبوية مذعورا، وذهب بالخبر عبد الله بن زيد بن عاصم المازني إلى عمر بن الخطاب[1]، فقال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: إن كنت له لفئة، لو انحاز إلي، أنا فئة كل مسلم[2]. فلم يكن عمر يرى لهم الدخول في مواجهة غير متكافئة مع الفرس، وكان يرى لهم الانسحاب والتحيز إلى المسلمين، ولو كان ذلك بالرجوع إلى المدينة.

٢- ما رُوي عن معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه كان يدفع إلى طاغية الروم إتاوة مالية أيام صِفِّين، وعن عبد الملك بن مروان أنه كان يدفع إتاوة مالية إلى ملك الروم أثناء قتاله مع ابن الزبير[3]. والشاهد أن العلماء في وقتهم وفيهم بقايا الصحابة كابن عمر، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وكبار التابعين كابن المسيب، والزهري، وعطاء بن أبي رباح،

---

(١) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٧-٢٨)، و«عوامل النصر والهزيمة» شوقي أبو خليل (٤٦-٥٠).

(٢) «مصنف عبد الرزاق» (٩٥٢٤)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٣٦٨٧).

(٣) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٥/ ٣٥٥).

وغيرهم لم يخرجوا عليهم بذلك، وعندما تَغَلَّب بايعوه وأطاعوه، ولم يروا أنه يجب الخروج عليه وعدم طاعته لهذه السابقة منه، وذلك إما أنهم رأوا مشروعية فعله لاختلال توازن القوة بين المسلمين والروم في ذلك الوقت، فرأوا فداء دماء المسلمين بأموالهم، أو أنهم رأوا خطأ فعله لكنهم رأوا المواجهة معه غير متوازنة، فاختاروا البيعة والطاعة على الخروج والمواجهة.

وعلى كلا الاحتمالين، فإن توازن القوة كان محل النظر والاعتبار منهم.

٣- ومسيرة التاريخ العلمي للمسلمين شاهدة بذلك، فعندما اختل ميزان القوة في الأندلس وتساقطت مدنها هاجر منها العلماء، وقد خرجوا منها دامية قلوبهم، دامعة عيونهم، ووصف أبو العباس القرطبي في كتابه: «المفهم في شرح مختصر مسلم» مشاهد مؤلمة لحالة الهجرة الجماعية بعد السقوط[١]، ومع ذلك لم يوجبوا على أنفسهم ولا على غيرهم البقاء والمواجهة غير المتكافئة، كالقرطبي المحدِّث أبي العباس أحمد بن عمر، والقرطبي المفسِّر أبي عبد الله محمد بن أحمد، والشاطبي القاسم بن فِيْرُّه بن خلف المقرئ، وغيرهم[٢].

وعندما استولى الصليبيون على فلسطين، هاجر علماء بيت المقدس وعلماء نابلس إلى الشام، كابن قدامة وابن سرور وغيرهم، واستوطنوا حي الصالحية بدمشق، واستأنفوا حياتهم العلمية هناك، وجعلوا من حي الصالحية روضة للعلم ومجتمعاً لأهل الصلاح:

الصالحية جنة والصالحون بها أقاموا

(١) ينظر: «المفهم» (٥/ ٢٢).
(٢) «الدور الفكري للأندلسيين المغاربة في المشرق العربي» د. علي أحمد.

وكان جامع الحنابلة في سفح قاسيون جامعة علمية، وتفاعلوا مع الحياة العلمية في دمشق وأثروها، وكان من آل سرور الحافظ عبد الغني المقدسي صاحب «الكمال في أسماء الرجال»، و«عمدة الأحكام» وغيرها، ومن آل قدامة، ابن قدامة صاحب «المغني»، وابن أبي عمر صاحب «الشرح الكبير» وغيرهم[1].

وعندما وصل التتار إلى حَرَّان هرب كثير من أهلها وفيهم من آل تيمية جَدُّ شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام، وابنه شهاب الدين عبد الحليم، وحفيده شيخ الإسلام تقي الدين أحمد -وكان في السابعة من عمره- ولم يروا أنه يجب عليهم البقاء في مواجهة غير متكافئة، ولم يُؤثِّم ابن تيمية -وهو الذي شهد ذلك طفلاً- أهلَه وقومَه بذلك.

وابن تيمية الذي هرب أهله من حران أمام المغول، هو ابن تيمية الذي حارب المغول في وقعة شقحب، وحض الناس على القتال واستنفرهم. وكان مصيباً في الحالتين؛ فهم خرجوا من حران أمام الزحف المغولي حيث لم تكن المواجهة مجدية، وحارب الزحف المغولي حين كانت المواجهة ممكنة، فكانت النتيجة السلامة في الأولى والنصر في الثانية.

لقد عاش العلماء في فترات ضعف الأمة ووهنها، وغلبة العدو عليها، فلم يستنفروا الناس لمواجهة غير متوازنة، ولم يقعدوا عن مشاريعهم العلمية النافعة، وإنما استمروا في العمل بما يطيقونه ويحسنونه، فبقيت ذخائرهم ثروة باقية نامية تستفيد منها الأمة جيلا إثر جيل إلى يومنا هذا.

---

(١) «مدينة للعلم: آل قدامة والصالحية» د. شاكر مصطفى.

٤- لو استدللنا بالوقائع التي وقع فيها الانتصار للمسلمين مع قلتهم، فسنجد وقائع كثيرة أيضاً هزم فيها المسلمون مع كثرتهم. ولا أدل على ذلك، من أن صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي انتصر في حطين، وفَتَح بيت المقدس لما شعر أن قُوَّتَهُ التي معه لا تمكنه من تحرير بقية أرض الشام، وقَّع مع الصليبيين اتفاقية «الرملة»، التي بموجبها أبقى لهم المدن والحصون التي كانت بأيديهم في ساحل فلسطين.

٥- إن الإيمان وحده ليس سلاحاً خارقا للأسباب، وإنما هو سلاح في عالم الأسباب، وإلا فماذا نقول عن جهاد الشهيد الشيخ عمر المختار رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو الرجل العابد القرآني الذي كان يختم القرآن في كل خمسة أيام؟

وماذا نقول عن الشهيد المجاهد عز الدين القسام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي ترك بلده سورية وجاء مهاجراً مجاهداً ليقاتل في فلسطين، ثم كانت نهايته الشهادة، ولم يتحقق له ما قصد إليه من طرد اليهود وتطهير فلسطين من رجسهم؟ نسأل الله أن يرفع درجاته في عليين.

أو القائد المجاهد يوسف بك العظمة، الذي خرج بمجاهدي سوريا ليصدوا الجنرال الفرنسي غورو؟ وقد وصف الشيخ على الطنطاوي حالهم -وهو شاهد عيان- فقال: اشتعلت البلد بنار الحماسة، وكان الوطني المخلص كامل القصّاب يُذْكي هذه النار ويُضرمها، وهجم الناس على الثكنة الحميدية، وخطفوا ما وجدوا من السلاح، ومنهم من أخذ بندقية فرنسية ورصاصاً ألمانيا فانفجرت بهم.

وظنوا بأن الحرب تُكتسَب بالخطب، كما يظن كثيرون، وخرجوا بالأهازيج والأناشيد يتسابقون إلى ساحة المعركة.

وكان من المتحمسين القائد الشابّ يوسف بك العظمة، شهيد ميسلون وقبره فيها. ولم يستمع أحد لنصح كبار العسكريين كرضا باشا الركابي، وكانوا يظنون أن جماهيرَ ما عندها من أدوات الحرب إلا الحماسة تستطيع أن تردّ جيشاً فرنسيّاً يقوده جنرال! فكانت الهزيمة المرتقَبة بعد قتال قصير، ودُفن الاستقلال وهو لم يتمّ سن الرضاعة، وبدأ حكم الأجنبي للشام[١].

وكذلك الشهيد عبد القادر الحسيني شهيد معركة القسطل قرب بيت المقدس، حيث دخل المعركة بسلاح رديء رفض استلامه في الشام، ثم أخذه مضطراً قبل المعركة حين لم يجد غيره، لتتحقق باستشهاده النتيجة المتوقعة من مواجهة مجاهدين شبه عزل جيشاً مسلحاً مدرباً معدّاً لهذه المعركة[٢].

وفي قصة القائد الملهم عبد الكريم الخطابي، عبرة لمن أراد فهم تعقيدات المشهد المعاصر؛ فقد ابتكر حرب العصابات، وامتلك كاريزما جعلت قبائل المغرب العربي تلتف حوله بانضباط فريد، وهزم ثلاث دول مجتمعة فرنسا وإسبانيا والإنجليز، وكبدهم خسائر فادحة، وأسس لدولة حديثة بحكم خلفيته الثقافية العالية، إذ كان يجمع بين العلم الشرعي والثقافة الغربية، مما جمل شخصيته وخصبها. فلما شعر الأوروبيون بنجاح دولته وهزيمتهم، لجأوا إلى السلاح الكيماوي فأبادوا قرى برمتها؛ عندها أدرك أن ثمن نجاحه يعني فناء سكان المغرب، فرفع الراية البيضاء حفاظاً على سلامة الناس[٣].

---

(١) «ذكريات علي الطنطاوي» (١/ ٩٢-٩٣).

(٢) من حديث حدثنيه الشيخ زهير الشاويش رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان رفيقه في هذه المعركة.

(٣) ينظر كتاب: «الغازات السامة ضد عبد الكريم، والحرب الكيماوية في الريف» لروبرت كونر، ورولف ديتر مولر.

ولا يصح أن يقال إن هؤلاء الشهداء الأطهار الأبرار لم ينتصروا لخلل في إيمانهم أو صدقهم، فقد جاهدوا بأغلى ما يملكون، وبذلوا كل ما يستطيعون رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، ولكن فارق القوة مع الأعداء كان هائلا لا يمكن تجاوزه في عالم الأسباب.

فالأعزل أمام المسلح، والمدني أمام الدولة الباغية الظالمة هو الطرف المغلوب، كما حصل في ربيع براغ، وميدان تيان ميان، وما فعلته الحكومات الشيوعية في كوبا وغيرها.



تساؤلات ومناقشات

إن الذين يتواثبون عَدْواً إلى معارك قتالية، تُخَلِّفُ مستنقعات الدماء، وركام الدمار، لا يَعدَمُون نَصَحةً يستوقفونهم في الطريق، بمنطق النصح لهم، والشفقة عليهم وعلى الأمة التي سيَجْني عليها تقحمهم هذه المقاتل، ولكنهم يدفعون ذلك بحجاج يتعاقبون على تداوله، واستدلال يرونه رافعاً للخلاف، قاطعاً في محل النزاع، **من مثل:**

تفسير: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ تفسيراً معيناً، وتفسير: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً**﴾ تفسيراً معيناً، ونحو ذلك من الاستدلالات ويغيب لديهم التطبيق النبوي، والتدوين الفقهي، والمسار التاريخي.

ولذا فلابد من الوقوف مع هذه الاستدلالات بروية وبصيرة، وضمها إلى بقية الدلائل في المسألة حتى يتضح بمجموعها الحكم، فلا يصح الاستدلال بنص يُجتزأ عن باقي الأدلة، أو واقعة تُجرد من سياقها وملابساتها المؤثرة في وصفها، **فمن ذلك:**

١- الاستدلال بقول الله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾، وأنه أمرٌ لنا بإعداد ما نستطيع من قوة؛ فإذا أعددنا ما نستطيع فقد تحقَّق الامتثال مهما كانت هذه

القوة قِلةً وضعفاً. وعلينا المواجهة بهذه العدة المستطاعة بغض النظر عن ميزان هذه القوة بالنسبة إلى قوة العدو.

والحقيقة أننا أُمرنا بما نستطيع وليس بما لا نستطيع، وأمرنا بإعداد قوة لها معنى القوة المرهبة للعدو: ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾.

فإذا كان ما استطعناه لا يعتبر قوة، ولا يتحقق بها إرهاب العدو، فنحن لم نستطع بعد، ولا نزال في حال عجز، ولا نُكلَّف إلا وسعنا، ولا نتجاوز ما نستطيع إلى ما لا نستطيع، ولو قيل بأن من أعد ما يستطيع فقد أدى ما عليه، وعليه المباشرة بالقتال بما استطاع تحصيله من قوة فإن هذا القول يُفضِي إلى ما لا يمكن أن يعقل أو يقبل.

فلماذا لم يُقَل للمستضعفين في مكة: إن عليهم أن يقاتلوا قريشاً بما يستطيعون من قوة؟ وسوف يستطيعون تحصيل قدر من القوة قطعاً!

إنهم لم يؤمروا بذلك بل أُمر الرسول والمؤمنون معه بالكف عن القتال: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

وهل سيقال في عصرنا الحاضر لأهلنا في فلسطين: إن عليهم أن يقاتلوا بما يستطيعون من قوة يمكنهم إعدادها، ولو كانت عصي المكانس، وسكاكين المطابخ، فهذا ما يستطيعونه؟ فهذا ما لا يقوله أحد.

لقد فعل أهل فلسطين ذلك وما هو فوق ذلك، فقاتلوا مع عز الدين القسام ومع عبد القادر الحسيني بما استطاعوا إعداده، وواجهوا الإنجليز في حمايتهم اليهود في دولتهم، ولكن كانت قوة العدو أكبر، وكيده أعظم، ولم يستطيعوا تجاوز عالم الأسباب.

وكثيراً ما يورَد هنا تساؤل: ما حد توازن القوة؟

وهذا السؤال يمكن أن يُقْلب، ويقال: بل ما حد عدم اعتبار توازن القوة؟

هل إذا قلنا: إن القوة غير معتبرة في التوازن، سنقول: يقاتل المستضعفون بأي وسيلة يمكن القتال بها ولو بالسكاكين والعصي؛ لأن توازن القوة غير معتبر، والإنسان لن يعدم نوعا من القوة يستطيع إعدادها ولو قاتل بلحم يديه؟

٢- أما الاستدلال بقوله تعالى حكاية عن قوم طالوت: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

فينبغي تأمل هذه القصة بتبصر وبصيرة، لنرى:

أولاً: أن هذه القصة حدثت لملإٍ من بني إسرائيل، وكان بين ظهرانيهم نَبيٌّ، ومَلِكٌ بعثه الله لهم: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، فهم يسيرون بأمر الله، وتوجيه نبيٍ، وحكم مَلِكٍ بعثه الله لهم.

وقد ظهرت لهم المعجزات عياناً في هذا الأمر: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ولذا فإن هؤلاء يتبعون نبياً مرسلاً ووحياً إلهيّاً، وما دام أن الله ابتعثهم، واختار لهم ملكاً يسير بهم، فإنهم يسيرون بأمره وتدبيره. ولذا فهم منصورون، والعاقبة لهم؛ لاستجابتهم لأمر الله الذي بلغهم إياه نبيهم، وآيته الظاهرة التي رأوها، وسنن الله تجري بحكمته وقدره.

ويدل على ذلك أنهم لما أرادوا عبور نَهرَ الأردن قال لهم ملكهم طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾، فنهاهم عن شرب الماء قبل المعركة. أما نبينا ﷺ، فقد أمر أصحابه

بشرب الماء عند ما ساروا لفتح مكة وهم صائمون في رمضان؛ ليتقووا على مواجهة العدو، فدعا بقدح من ماءٍ بعد العصر، فرفعه حتى نظر الناس إليه ثم شرب. وعندما قيل له بعد ذلك إن بعض الناس قد صام قال: «**أُولَئِكَ الْعُصَاةُ، أُولَئِكَ الْعُصَاةُ**»[1].

فكانت معصية الذين مع طالوت أن يشربوا من الماء، وكانت معصية الذين مع نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أنهم لم يشربوا الماء، مع أنهم كانوا صائمين في نهار رمضان. ولذا فإن قوم طالوت، لو فرض أنهم كانوا فئة قليلة جدّاً، وعدوهم أكثر منهم أضعافاً مضاعفة، ثم أُمروا مع ذلك بالثبات لهم، فإن هذا أمر الله الذي لا يسعهم مخالفته؛ إذ هو أمر الله الذي بلغه نبيه، وأراهم آيته. ولذا فمسير هؤلاء مع نبيهم، كمسير أهل بدر مع نبيهم؛ ساروا بأمر الله، ليتحقق لهم موعود الله، فعن البراء، قال: كنا أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاث مئة[2].

ثانياً: أن القلة والكثرة نسبيتان، وليس المراد أن أي قلة تواجه أي كثرة، فإن الله عزّ وجلّ الذي أنزل هذه الآية هو الذي أنزل: ﴿ **ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ** ﴾. ولاحظ أن أول المخاطبين بقوله: ﴿**وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا**﴾ هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن هؤلاء الموعودين بالغلبة على ضِعفِهم، وبمعية الله لهم، هم أهل الصبر والثبات، وليس الضعاف المهازيل: ﴿**وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ**﴾ ومع ذلك خفف عنهم بهذا التخفيف.

---

(١) «صحيح مسلم» (١١١٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٥٩).

ولذا ينبغي أن يكون حد القلة والكثرة ما ذكر في آيات الأنفال، أما آية: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ فلا تعني أن أي فئة قليلة مهما قلت تَغْلِبُ أَيَّ فئةٍ كثيرة مهما كثرت، ولكن يرد المجمل في سورة البقرة، إلى المفصل الذي بينته آية الأنفال، وأن حد القلة والكثرة أن يكون العدو ضعفهم عدداً.

ثالثاً: إن انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ليس دليلاً على أن الفئة القليلة على الحق والكثيرة على الباطل؛ فإن الخوارج قد خاضوا حروباً كثيرة وهم قلةٌ قليلة لا يتجاوزون بضع مئات، وانتصروا على جيوش المسلمين التي كانت تقاتلهم وهم ألوف عديدة، وذكر المبرد في ذلك قصصهم وأخبارهم في كتابه الكامل. **ومن ذلك**:

معركة الخوارج، وقائدهم سعد الطلائع، وعددهم خمسمئة فارس، وقتالهم لجيش عبد العزيز بن عبد الله بن أَسِيد، وكانوا ثلاثين ألفاً، فهزموهم، وقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً، وأسروا الرجال، وسبوا النساء، على قلة عددهم، وكثرة أعداد مقاتليهم[1].

وكانوا يرون بذلك، أنهم الفئة القليلة المؤمنة، التي تغلب الفئة الكثيرة الكافرة.

ومن ذلك أيضاً، أن أبا بلال بن أُدَيَّة الخارجي، وكان ممن شهد معركة النهروان مع الخوارج، محارباً الإمامَ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم خرج بَعْدُ في أربعين رجلاً من الخوارج على عبيد الله بن زياد أمير العراق، فبعث إليهم جيشاً قوامه ألفا رجل، فلما التقوا في موضع يسمى «آسك»، شد الخوارج عليهم شدة رجل واحد، فهزموهم، وهربت فلول جيش ابن زياد إلى البصرة، وفي ذلك يقول أحد الخوارج:

أألفا مؤمن منكم زعمتم ... ويقتلهم بآسِكَ أربعونا

---

(١) «الكامل» للمبرد (٣/ ٢٥٣)، و«مرآة الزمان» سبط ابن الجوزي (٥/ ١٥٣).

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة يُنصرونا[1]

رابعاً: وكما انتصر المسلمون في معارك كثيرة وكان عدوهم أكثر منهم، فإنهم هُزِموا أيضاً في معارك كثيرة وكان عدوهم أقلَّ منهم.

ومن ذلك معركة العُقاب في الأندلس، والتي كان عدد جيش المسلمين فيها خمسمئة ألف (٥٠٠،٠٠٠)[2]، وأما عدد جيش النصارى فكان مئة ألف وعشرة آلاف (١١٠،٠٠٠)[3]، وكانت نتيجتها هزيمة ماحقة على المسلمين تداعت بعدها ممالك الأندلس وتساقطت واحدة إثر أخرى، ولا يصح أن نقول: إن السبب هو ضعف إيمان المؤمنين، فقد كانوا مسلمين موحدين، وعدوهم كفار صليبيون يعبدون مع الله غيره، ويقولون وَلَدَ الله، والله ثالث ثلاثة.

ولكن النصارى لم ينصروا بكفرهم، والمسلمون لم يهزموا بإسلامهم، ولكن لقوانين عالم الأسباب التي لا تحابي أحداً.

وعندما واجه جنود الخلافة العثمانية الإسلامية القوات الروسية، في معركة صاري قامش، وكانت في منطقة شديدة البرودة في أرض الروم، تنخفض الحرارة فيها إلى درجة التجمد، وكان قائد الجيوش العثمانية أنور باشا وزير الحربية، والذي تلقى تحذيرات من القادة العسكريين العثمانيين بعدم دخول المعركة، إلا أنه أصر على بدء المعركة قائلاً: أنه لا يمكن تحقيق النصر إلا بركوب المخاطر.

(١) «الكامل» لابن الأثير (٣/ ١١٢).
(٢) «الأنيس المطرب بروض القرطاس» لمعلى بن أبي زرع الفاسي (٢٤١).
(٣) «دولة الإسلام في الأندلس» لمحمد عبد الله عنان (٤/ ٢٩٤).

وما أسهل ركوب المخاطر، إذا كان الذي سيتعرض لهذه المخاطر غيرنا!

وانطلقت الإمدادات والمؤن، تحملها السفن من إسطنبول عبر البحر الأسود، فاعترضتها السفن الحربية الروسية، وأغرقتها قبل أن تفرغ حمولتها.

أما الجنود المقاتلون الذين كان كثير منهم من المجاهدين العرب اليمنيين الذين لم يألفوا المناطق المتجمدة ولم يستعدوا لها، فقد أصبح الصباح وتسعون ألفاً منهم جثث متجمدة من شدة البرد، وعشرة آلاف جرحى، وسبعة آلاف أسرى هلكوا بعد ذلك في صحاري سيبيريا المتجمدة[١].

إن هؤلاء لم يموتوا لأنهم أضعف إيماناً، ولا لأن عدوهم أصح منهم ديناً؛ ولكن لأن الحرارة الإيمانية لا تغير المناخ، ولا تبطل قانون الأسباب.

وكما هزمت الجيوش العثمانية من شدة البرد، هزمت الجيوش الألمانية في روسيا بسبب الثلوج، فكان يقال: إن الذي هزم ألمانيا في روسيا هو المارشال ثلج[٢]، فقانون الأسباب لا يحابي أحداً.

وعندما كانت بريطانيا الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، كانت أكثر بلاد المسلمين تحت نفوذها، وسكانها بمئات الملايين، بينما لا يتجاوز عدد سكان بريطانيا في أول القرن العشرين أربعين مليوناً[٣].

وإندونيسيا التي يعيش فيها اليوم قرابة (٢٨٠) مليوناً استولت عليها هولندا أكثر من ثلاثمئة سنة، ولا يتجاوز سكانها اليوم (١٧) مليوناً، فكم كانوا قبل ثلاثمئة سنة يا ترى؟![٤].

---

(١) «صاري قامش» لشريف بي، باللغة التركية.

(٢) «هنا برلين حي العرب» يونس بحري.

(٣) ينظر: الموسوعة الحرة (Wikipedia).

(٤) ينظر: الموسوعة الحرة (Wikipedia).

والإمارات الإسلامية التي كانت تمتد من إثيوبيا إلى مدغشقر، بطول الشاطئ الإفريقي الشرقي، وكانت تشكل قوساً بحرياً إسلامياً يتواصل مع الشاطئ العربي والشاطئ الهندي. وقد كتب المؤرخون لهذه الإمارات -وهم يتحدثون عن أسباب سقوطها وزوال الوجود الإسلامي على يد الغزاة المتوحشين الأسبان والبرتغال- عبارة واحدة تواطؤوا عليها وهي: «ولَعِبَ السلاح الناري دوره الحاسم في المعركة».

فقد كان المجاهدون الأفارقة يخرجون متوضئين لمواجهة الأوروبيين الغزاة، لكنهم يحملون أسلحة بدائية، مقابل الغزاة السكارى المعربدين المجرمين الفجرة، ولكنهم مدججون بالسلاح الناري المتطور. وينتصر الفاجر على المؤمن؛ لأن «إعداد القوة» أحد السنن الكونية المتصلة بالأخذ بالأسباب. والقصة نفسها تكررت، في الشاطئ الشرقي لآسيا، لا سيما في الفيليبين؛ حيث لعب السلاح الناري دوراً حاسماً في إنهاء المعركة لصالح المستعمرين الصليبيين، على حساب المواطنين المؤمنين[1].

إن الكثرة في العالم الإسلامي فقدت فاعليتها؛ لأن أوروبا تفوقت عليها في مجالات متعددة، منها: نوعية الأسلحة، والتفوق الصناعي الذي تحقق في أوروبا خلال الثورة الصناعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي[2]، فلم تعد القلة والكثرة المقياس الوحيد للقوة، ولكنها إحدى مقاييسها في حالات خاصة، وللقوة مؤهلات أخرى في أحوال كثيرة غيرها.

---

(١) عن مجلة «القرن الإفريقي» الصادرة عن جامعة أفريقيا الدولية بالسودان، بواسطة «القرآن والعقل» (ص ٤٥).

(٢) ينظر: الموسوعة الحرة (Wikipedia).

٣- أما الاستدلال بمعركة بدر، وأنها معركة غير متكافئة القوة، ومع ذلك دخلها المسلمون وانتصروا، فإن النظر فيها يحتاج إلى شيء من الروية والفقه، **وبهذا النظر يظهر لنا:**

أولاً: أن هذه المعركة من أقوى الأدلة على اعتبار توازن القوة؛ لأن النبي ﷺ خرج من المدينة بجيش مسلح قوامه أكثر من ثلاثمئة مقاتل، وسبعين بعيراً، وفرسين ليواجه قافلة تجارية قوامها أربعون رجلاً[1] وليس جيشاً عسكريّاً، ولم يكن القتال مع جيش مسلح في تدبيرهم ولا تقديرهم، فهم ذهبوا بهذا الجيش إلى قافلة غير ذات شوكة: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ ونفروا إليها بعدد أكثر من عدَدِها، وقوةٍ أكبر من قوتها.

ثانياً: أن هذه المعركة كانت بأمر الله ووحيه إلى رسوله، كما كانت معركة بني إسرائيل مع طالوت بأمر الله ووحيه إلى نبيهم، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

وإذا كان الخروج بأمر الله، فإن نواميس الكون وسنن الحياة، تخرق لأمر الله الذي خلق الكون، وأجرى نظامه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

فكان مسيرهم بأمر الله، ولقاء عدوهم بتدبير الله.

ثالثاً: أن بشائر النصر لهذه المعركة قد جاءت والنبي ﷺ لازال في مكة قبل أن يهاجر، وقبل أن يُؤْذن له بالقتال؛ فقد أنزل الله عليه في مكة: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

(١) «جوامع السيرة» لابن حزم (ص ٨١).

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: نزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بمكة وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[1].

فلما كان يوم بدر، كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في قبة له يناشد ربه ما وعده ويقول: «**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**». فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ الله، فَقَدْ أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ، وَهُوَ فِي الدِّرْعِ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[2].

وأرى الله نبيه مصارع القوم قبل أن تقع المعركة، وجلَّى له عاقبتها قبل بدايتها، وأراه مصير أعدائه قبل أن يراهم؛ ولذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قبل أن يصل إلى بدر: «**وَاللهِ، لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ**»[3].

فبشرى النصر في هذه المعركة قد سبقت وقوعها.

رابعاً: أن الله وعد رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قبل سيره إلى بدر إحدى الطائفتين: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾، وكانوا إلى قبيل وقوع المعركة يطمعون بالاستيلاء على القافلة: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾. فساق الله كلًّا من الفريقين إلى الآخر، وواجه بعضهم ببعض على غير ميعاد بينهم: ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾، كما قال كعب بن مالك: إنما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد[4].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٧٦).
(٢) «صحيح البخاري» (٢٩١٥)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٣).
(٣) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦١٥)، وينظر: «السنن الكبرى» للنسائي (٨٥٧٤).
(٤) «صحيح البخاري» (٣٩٥١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

فلما حصلت هذه المواجهة غير المتوقعة، وبلغ النبيَّ ﷺ خبرُ وصول جيش قريش، جمع أصحابه قبل معركة بدر في مكان يقال له: «ذِفران»، واستشارهم، فأشار عليه المهاجرون والأنصار أن يمضي لما أمره الله، وقالوا: لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك. فقال النبي ﷺ: **«سِيرُوا وَأَبْشِرُوا؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ»**[1]. فكان مسير النبي ﷺ بأمر الله المسبوق، بتلك البشرى، وبهذا الوعد المحقق.

فلما وصلت قريش بكل إمكاناتها ولم يبق إلا المواجهة بما عليه المسلمون من حال، وهي حال قلة وضعف، وقوة غير مكافئة لقوة العدو، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ**﴾، أي ضَعَفَةٌ لقلة العدد والسلاح بالنسبة لجيش المشركين؛ قام النبي ﷺ تلك الليلة في مناجاة طويلة لم يقمها في معركة غيرها، وناشد ربه: **«اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ أَبَداً»**[2]. فلماذا كان حال النبي ﷺ في هذه المعركة غير حاله في غيرها من المعارك؟!

إن سبب ذلك ظاهر جلي وهو أن هذه المعركة كانت مواجهة استثنائية غير متوقعة ولا متوازنة القوى.

فالمسلمون خرجوا بجيش قليل، وعتاد قليل، للظفر بقافلة تجارية، ليست ذات شوكة ولا جيش ولا عتاد. أما قريش فقد خرجت مستنفرة للقتال، مستعدة له، حَرِدَةً،

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦١٥)، وينظر: «السنن الكبرى» للنسائي (٨٥٧٤).
(٢) «مسند أحمد» (٢٠٨)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٣).

حانِقَةً، في سوابغ الحديد، والعدة الكاملة، والخيول المسومة، فلما رآهم النبي ﷺ قال: «**اللَّهمّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخُيَلَائِهَا وَفَخْرِهَا، تُحَادُّكَ وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ، اللَّهمّ فَنَصْرَكَ الَّذِي وَعَدْتنِي، اللَّهمّ أَحِنْهُمُ الْغَدَاةَ**»[١].

خامساً: أن هذه المعركة التي سار النبي ﷺ لها بأمر الله، تتابع فيها من المعجزات والخوارق ما لم يوجد في معركة أخرى غيرها، **فمن ذلك**:

أ. أن الله قلَّلَ عدد المشركين في نظر أعينهم: ﴿ **وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ** ﴾، حتى قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ قال: لا، بل أراهم مئة. حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، فقال: كنا ألفاً[٢].

وذلك لتقوى قلوبُهم، وتزداد شجاعتُهم، ويجرؤوا على القتال، ويعظم بأسهم فيه.

وفي الوقت ذاته قلَّلَ اللهُ المسلمين في أعين المشركين قبل المعركة، فكان المشركون يحسبون المسلمين أقل من عددهم الحقيقي، حتى قال أبو جهل وقد حزر المسلمين قبل المعركة: إنما هم أَكَلَةُ جزور، أي قرابة المئة، وكانوا في الحقيقة ثلاثمئة وبضعة عشر، فأغراهم ذلك بالظفر عليهم بأدنى قتال، فكان صارفاً إياهم عن التأهب لقتال المسلمين، وبذلك أغرى الله كلاً من الفريقين بالآخر، وحضَّض بعضهم على بعض.

فلما التحم الفريقان، رأى الكفار المسلمينَ مثلي عددهم، فوقع الرعب في قلوبهم، والدهشة والارتباك في صفوفهم، فانهزموا. فهذه الرؤية جُعِلت آية لمن رأوها، وتحققوا بعد الهزيمة أنهم كانوا واهمين فيما رأوه؛ ليكون ذلك أشد حسرة لهم،

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٢١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨).

وتكون هذه الرؤية غير الرؤية المذكورة في سورة الأنفال بقوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾، فإن تلك وقعت قبل التلاحم، حتى يستخف المشركون بالمسلمين، فلا يأخذوا أهبتهم للقائهم. فلما لاقوهم، رأوهم مثلي عددهم، فدخلهم الرعب والهزيمة، ثم تحققوا قلة المسلمين بعد انكشاف الملحمة، فازدادت حسرتهم، وعَظُم غبنهم. فكان تقليل المسلمين في أعين المشركين قبل المعركة، ومضاعفتهم أثناء المعركة سببَ نصرِ المسلمين بعجيب صنع الله تعالى لهم[1].

ب. ومن المعجزات في معركة بدر، أن الملائكة كانت مدداً للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾. وقد باشرت الملائكة فيها القتال، كما في حديث ابن عباس، قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ، يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. فنظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقيا، فنظر إليه، فإذا هو قد خُطم أنفه[2]، وشُق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»[3].

ففي هذه المعركة، باشرت الملائكة القتال. أما في غيرها من المعارك، فإن الملائكة تنزل مدداً للمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾. قال أكثر المفسرين: تتنزَّل الملائكة لا للقتال، ولكن لتجبين الكفار وإدخال الرعب في قلوبهم، وتثبيت المؤمنين وتشجيعهم، وإن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر[4].

---

(١) «التحرير والتنوير» (٣/ ١٧٧).
(٢) خطم أنفه، أي: أثر فيه. ينظر: «المفهم» للقرطبي (٥/ ٧٧).
(٣) «صحيح مسلم» (١٧٦٣).
(٤) «تفسير السمعاني» (٢/ ٢٩٩)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٣٢٢)، و«تفسير القرطبي» (٨/ ١٠١).

وقد رُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَمْ تُقَاتِلِ الْمَلَائِكَةُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَّا يَوْمَ بَدْرٍ، وَكَانَتْ تَكُونُ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ إِمْدَاداً[1].

فمعركة بدر هي المعركة التي باشرت فيها الملائكة القتال، ورأى المسلمون أثره عياناً، بينما نزول الملائكة في غيرها بالتأييد والتثبيت.

ومن المعجزات فيها، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعد انتهاء المعركة، وقف على جثث القتلى وقد أُلقوا في القليب، فخاطبهم كما يخاطب الأحياء، وناداهم: «**يَا فُلَانُ بْنَ فُلَانَ، وَيَا فُلَانُ بْنَ فُلَانَ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ حَقّاً؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللهُ حَقّاً**». قال عمر: يا رسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها؟ قال: «**مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيَّ شَيْئاً**»[2].

فخرق الله السنة الماضية والقانون العام؛ ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ**﴾؛ ليكون ذلك قُرة عين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، بأن يُبكِّت هؤلاء الذين طالما آذوه واستهزأوا به وسخروا منه، وحتى يشفي الله صدور المؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم.

ولذلك فلا يمكن اتخاذها معياراً بينما هي حدث استثنائي، **والدليل على ذلك:**

أ. أن المسلمين في معركة الخندق كانوا بنفس النسبة مع المشركين تماماً؛ فكانوا في بدر (٣٠٠)، وفي الخندق (٣٠٠٠)، والمشركون في بدر (١٠٠٠) وفي الخندق (١٠,٠٠٠). فالنسبة هي هي، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم يخرج في الأحزاب ولم يواجه، وإنما ادخر المسلمين وتحصن بهم وحازهم إلى مأمنهم.

---

(١) «المعجم الأوسط» للطبراني (٩١٢٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٧٦)، و«صحيح مسلم» (٢٨٧٣).

ولذا فلا يصح اعتبار هذه الحال في بدر أصلاً وإغفال كل الدلالات الظاهرة على اعتبار توازن القوة، وإنما يستدل بقصة بدر في الحال التي تشابهها.

ب. أن سورة الأنفال التي نزلت بعد معركة بدر، نزل فيها التخفيف: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾.

فأول من خوطب بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾، هم أبطال الصحابة الصابرون المستبسلون في معركة بدر والمتصدرون فيها.

ج. أن أَمْر الله إلى رسلِه يتجاوزُ عالم الأسباب، ويخترق نواميس الكون؛ فهو أَمرُ مَن خلَقَ الكون، وقَدَّر أسبابه، وأجرى نواميسه. ولذا يتلقاه رسل الله بالانقياد، والتسليم، والتفويض التام إلى الله، وإن كان ظاهره يخالف المعتاد؛ ليقينهم بقدرة الله الغالبة، وحكمته البالغة.

فعندما أمر إبراهيم أن يهاجر بأم ولده ورضيعها، وأن يدعهما في واد غير ذي زرع، ليس فيه علامة من علامات الحياة؛ فلا ماء، ولا زرع، ولا ساكن، ثم يمضي ويتركهما. وفزعت هاجر أن تُتْرَك في هذا القفر الموحش، فسألته: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت بإيمان الصديقين: إذن لا يضيعنا[1]. فإبراهيم لم يتركهما في هذا القفر الموات تفريطاً ولا تضييعاً، ولكن استجابة لأمر ربه الذي: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾. ولذا كان هذا الفعل الذي في ظاهره الهلكة، سبباً لخرق المعتاد من عالم الأسباب، ليجري الله أسباباً أخرى للحياة؛ فيتنزل الملَك، وتتفجر الأرض، وينبعُ الماء، وتَدبُّ الحياة، ويتكاثر الأحياء.

وتحقق رجاء هاجر في ربها: إذن لا يضيعنا.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٦٤).

وعندما خافت أم موسى على ولدها، أوحى الله إليها: ﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾، مع أن الإلقاء في اليم ظاهر في أنه سبب هلكة، ولكن تدبير الله جعله سبباً للنجاة.

وعندما خاف بنو إسرائيل من فرعون، أوحى الله إلى موسى، أن يسير بهم في اتجاه البحر، في طريق غير مطروق؛ لأنه ينتهي بالبحر. مع أن موسى يعرف طريق الهرب الذي سلكه عندما توجه تلقاء مدين، لكنه سار في الطريق الذي أُمِر به، مفوضاً أمره إلى ربه الذي أمره. ولذا لما قال له بنو إسرائيل وقد اعترضهم البحر: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾، كان في غاية الثبات واليقين، فقال لهم: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾.

فموسى لم يسلك هذا الطريق مغامرة، وإنما سار مستهدياً بدلالة الله له.

وعندما هاجر ﷺ إلى المدينة، هاجر بأمر الله، وفي الوقت الذي أذن الله له فيه. ومع اتخاذه كافة الأسباب المعتادة، إلا أن ثقته بالله الذي أمره، كانت فوق الأسباب والتدابير؛ ولذا كان في غاية الثبات والسكينة، وأقدام المشركين تجول عند فجوة الغار، فيُسكِّن قلق صاحبه، قائلاً: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

فكان الله معه حيث صرفهم عنه وقد وصلوا إليه، وكان الله معه حين كف عنه طلب سراقة حين أدركه.

فخرقت الأسباب والنواميس للنبي الذي سار بأمر الله، وكان الله معه.

فهؤلاء الأنبياء اخترقوا عالم الأسباب بأمر الله لهم في هذه المواضع الخاصة، وإن كانوا يسيرون في حياتهم كلها على وفق السنن والأسباب المقدرة؛ فلا يصح الاستدلال بالحالة الخاصة التي خرقت بأمر الله، على الحالة المطردة المعتادة التي تجري بتدبير الله وسننه في كونه الذي خلقه وأجراه.

ولا تنقض الحالة المطردة بالاستثناء الخاص، كما لا تنقض القاعدة بالمثال الشاذ.

ولذا لم يخرق عالم الأسباب لسحرة فرعون، حينما آمنوا بموسى؛ فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبوا في جذوع النخل.

ولم تخرق الأسباب لأصحاب الأخدود، إذ هم على النار قعود.

ولم تخرق للمعذبين المؤمنين الذين كانوا يمشطون بأمشاط الحديد، وينشرون من مفارق رؤوسهم بالمناشير.

وكانت الفائدة من هذه القصص الدالة على عظيم الصبر والثبات، تربية المؤمنين على الصبر والاحتمال في سبيل الدين، ولذا قال النبي ﷺ لأصحابه: «**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ**»(١).

ومع ذلك أذن لهم ﷺ بالتلفظ بالكفر عند الإكراه، وأمرهم بالتخفي بإسلامهم؛ لأن المراد التربية على الصبر والاحتمال، وليس تطبيق الفعل نفسه، والصبر على المصير ذاته.

٤- وأما الاستدلال بمعركة القادسية واليرموك، فإن الأمر يحتاج إلى تبصر في حال الإمبراطوريتين الهرمتين في ذلك الوقت؛ فإن هرقل عظيم الروم تولى زعامة الروم سنة مبعث النبي ﷺ(٢)، ومنذ توليه والمعارك الطاحنة بينه وبين الفرس على أشدها. ففي سنة (٦١٤م) اجتاح الفرس بلاد الشام واستولوا على بيت المقدس، ثم استولوا

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٥٢).

(٢) ينظر: الموسوعة الحرة (Wikipedia).

على مصر سنة (٦١٦م)، واستمر زحفهم حتى وصلوا إلى القسطنطينية عاصمة الروم، وحاصروها حصاراً شديداً طويلاً، وأنزل الله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾.

ثم حاربهم الروم بعد ذلك، وهزموهم في آسيا الصغرى سنة (٦٢٢م)، ثم استعادوا منهم سوريا ومصر سنة (٦٢٥م)، ثم هزموهم هزيمة ساحقة سنة (٦٢٧م)، مما أدَّى إلى ثورة العاصمة «المدائن» ضد كسرى الثاني، وعقد خليفته شيرويه الصلح مع هرقل، وتحقق موعود الله بتغلُّبهم: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾. وسار هرقل مشياً على قدميه من حمص إلى بيت المقدس شكراً لله على هذا النصر، وهناك تلقى رسالة النبي ﷺ إليه بدعوته إلى الإسلام.

ثم تكاثرت الثورات والانقلابات الداخلية لدى الفرس، حتى تعاقب على عرش فارس في السنوات التسع التالية أربعة عشر حاكماً؛ مما مزق أوصال دولتهم، وجعلها مسرحاً للفتن الداخلية، حتى أجهز عليها المسلمون في جهاد الفتوح[1].

فالحاصل أن هاتين الدولتين خاضتا حروباً، استمرت نحواً من عشرين سنة، استنزفت قواهما، وجعلتها في حال إعياء، في حين كانت القوة الفتية الناشئة تُعَدُّ في جزيرة العرب. فلما توجهت جيوش الفتح واجهت قوة منهكة، وشعوباً ملَّت القتال وأعيتها المعارك، وكان هذا من صنع الله لنبيه وأمة نبيه، ومداولته الأيام بين الناس.

فكانت القوة مكافئة برغم التفوق العددي للعدو، وإلا فإن المغول عندما اجتاحوا بلاد المسلمين لم يكونوا أكثر من المسلمين عدداً، ولكن كان المسلمون في حال من الوهن والضعف، سمح للمغول باختراقهم. وكذلك الصليبيون؛ لم يكونوا أكثر من

(١) «مختصر دراسة التاريخ» لتوينبي (١/ ٢٦٤)، و«عصر السيرة النبوية» (ص: ١٧).

المسلمين حينما وصلوا لديارهم، بل كانوا منهكين متفرقين، ولكن كان المسلمون في حال من الوهن تُمكّن الصليبين من التغلب عليهم، وكان جسد الأمة ضعيفاً رخواً، حتى نفذ جيش العدو فيه إلى العمق. فتصوير معارك المسلمين على أنها معارك معجزات، ليس من الحقيقة التاريخية، ولا من الرشد في التربية.

٥- ومن الدعاوى في ذلك، وصف التهور والمغامرة، وإقحام الأمة في المخاطر، بأنه من التوكل على الله. والاستدلال بفهم خاص لآيات التوكل: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وينسون أن سيد المتوكلين ﷺ قد ظاهر في درعين، ودخل مكة وعلى رأسه المغفر، ونام وحوله الحراسة المسلحة، وهو الذي أنزل الله عليه: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، لأن عصمة الله له كانت تجري وفق الأسباب الكونية والسنن الإلهية.

ونسوا أن سيد المتوكلين الذي قال لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ -وهذا غاية اليقين في أحرج لحظات الخطر- قالها وهو مختبئ مع صاحبه في الغار، متوارٍ عن طلب قريش. ومع هذا اليقين الجازم بمعية الله، فإن ذلك لم يدفعه أن يخرج من الغار، ليواجه هؤلاء الذين وصلوا إليه. يسمع هو وصاحبه كلامهم، ويريان مواقع أقدامهم، وهؤلاء لا يتوقع أن عددهم يتجاوز العشرة، لأنهم ليسوا جيشاً، ولكن فرقة استكشاف ضمن فرق تفرقت في كل الطرق حول مكة للطلب والبحث. فهل ثَمَّ أعظم توكلاً ممن يقول في هذه الحال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾؟ ومع ذلك يحتاط هذا الاحتياط، ويتوقى هذا التوقي.

على أن التوكل على الله في القتال، هو كالتوكل عليه في أمور الحياة عامة؛ فنحن نتوكل على الله في رزقنا، موقنين أن ﴿اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾، ولكنا نستيقظ صباح كل يوم، نغدو إلى أعمالنا، ونبتغي عند الله أرزاقنا.

ونتوكل على الله في شفائنا؛ موقنين بأن الله هو الشافي المعافي: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، ونذهب إلى المشافي، ونراجع الأطباء، وهكذا في بقية أمور حياتنا. فما بال التوكل في أمر القتال، يصير تواكلاً وفراراً إلى عالم المعجزات ودعاوى الكرامات؟ مع أن الله قال عن ذي القرنين، الملِك الجوَّاب لآفاق الدنيا مشارقها ومغاربها: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝٨٤ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾، فهو يسير في عالم الأسباب، مع أن الله مَكَّن له في الأرض.

٦- ومن ذلك، الاستدلال بحديث: «**مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ**»[(١)]، على مشروعية القتال مطلقاً عند الاعتداء، وإن كان العدو أقوى عُدَّة وأكثر عدداً. وهنا قد يقال: إنه لابد من التفريق بين القتال الفردي، وقتال الجماعة الذي تتداعى نتائجه إلى مجموع الأمة؛ فالإنسان مُخَيَّر عندما يريد أحد أن يسلب ماله أن يفتدي نفسه بماله، أو أن يحمي ماله بنفسه، وهذا القرار يتعلق به هو دون غيره، فإن أصيب فلن يصاب غيره بمصيبته. ولذلك قال النبي ﷺ لمن قال له: يَا رَسُولَ الله، أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟ قَالَ: «**فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ**». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ: «**قَاتِلْهُ**». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: «**فَأَنْتَ شَهِيدٌ**». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: «**هُوَ فِي النَّارِ**»[(٢)].

ونلاحظ هنا، أن السائل سأل عن رجل، ولم يسأل عن جيش، فهو يقول إن جاء رجل يريد أخذ مالي، فالقوة هنا متوازنة، رجل لرجل.

ثم هو في حفظ الحقوق الخاصة، وليس عن الجهاد الذي تُقْحم فيه الأمة، وتتحمل بمجموعها نتائجه ومغبة إخفاقه. فالأمة لا يقرر مصيرها فرد أو أفراد، وإنما يقرر مصيرها ولاية راشدة حكيمة، مؤتمَنة على دماء الناس وأموالهم، وليس عصاباتٍ أو جماعاتٍ تَفْتَاتُ على الأمة وتقاتل باسمها بلا تفويض منها.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٤٨٠)، و«صحيح مسلم» (١٤١).

(٢) «صحيح مسلم» (١٤٠).

ثم إننا نسأل من يستدلون بذلك سؤالاً صريحاً كاشفاً وهو: هل لو اتصل عليك ابنك، وقال: يا أبت، قد ظهرت أمامي عصابة مسلحة، يريدون أخذ محفظتي، وليس معي إلا سكين الجيب، فماذا أفعل، هل أقاتلهم بها؟ فإن قُتلتُ فأنا شهيد، أم أعطيهم محفظتي بما فيها، وأنجو بنفسي؟ فبماذا سيجيب أي أب ابنه لو سأله هذا السؤال في هذه الحال؟

ليتنا نختار لأبناء أمتنا كالذي نختاره لأبنائنا.

٧- إن الذي يتصرف في ماله بغير رُشد تنزع ولايته عن ماله: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ**﴾، فإذا كان هذه عاقبة من يتصرف في ماله بغير رُشد، فكيف بمن يتصرف في مال غيره؟!

فإذا كان هذا شأن المال، فكيف بشأن الدماء؟ وهل التصرف في الدماء، وتعريضها للهلكة، وتسليط الأعداء على الضعفاء والمستضعفين الذين: ﴿**لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا**﴾ من الرشد أم من السفه؟

٨- إن النقاش في هذا الموضوع، قلما يتجرد للحوار الموضوعي العلمي، لكنه في الغالب مشوب بالانفعال العاطفي؛ لشدة الاستفزازات التي تتعرض لها الشعوب المسلمة اليوم. وهي مواجع مؤلمة، تُذيب القلوب، وتُذهل العقول، فتجعل البعضَ يدخل إلى النقاش بانفعال وحماس شديد يفقده وضوحَ الرؤية، وترتيبَ المقدمات الموصلة إلى النتائج الصحيحة. وربما بلغ الانفعال بالبعض، أن يسلك في الحوار أسلوب حرب العصابات؛ بأن يدخل في نقاشه قضايا ليست من صلب الموضوع، كالاتهام بالخوف من الأنظمة أو العمالة لها؛ أو الاتهام بالشماتة بمصائر من سلكوا

هذا السبيل، ونحو ذلك مما هو شَقٌّ عن القلوب، وانتقالٌ عن أصل الموضوع إلى محاكمة النيات؛ حتى يُشْغَل المحاوِرُ بالتبرؤ من التهمة وتبرير موقفه، فيضيع الحوار في الموضوع الأصلي، ويتشتت النقاش.

ولذا؛ فلا بد من وجود فاصل منيع بين الانفعال العاطفي والتحرير العلمي، وهو ما كان يضبط انفعال الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، على شدة ما كانوا يَلْقَون من الاستفزاز العنيف لمشاعرهم. ومن ذلك مشهد أبي جَنْدل بن سُهيل بن عمرو، حينما ألقى بنفسه بين يدي المسلمين، بعد الاتفاق على صلح الحديبية، فرده النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ إلى المشركين، فرجع يرسف في قيوده، وهو يقول: يا معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني. فلم يغن ذلك عنه شيئاً، وما زاد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ إلا أن قال له: «**يَا أَبَا جَنْدَلَ اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ؛ فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجاً وَمَخْرَجاً**»[1].

إن تخيل هذا المشهد، يكشف مدى الانضباط الذي كان يحكم عواطف الصحابة وانفعالاتهم؛ ولذا قال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّهِمُوا الرَّأْيَ عَلَى الدِّينِ؛ فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي أَرُدُّ أَمْرَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ بِرَأْيِي اجْتِهَاداً، فَوَاللهِ مَا آلُو عَنِ الْحَقِّ، وَذَلِكَ يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ[2].

وقال سهل بن حُنيف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لقد رأيتني يوم أبي جَنْدل، ولو استطعت أن أرد أمر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ لرددته[3].

٩- عند طرح هذه القضية، فإن علينا ألا نُخَوَّف من الاتهام بالخوف؛ فإن الخوف الطبيعي في مكانه ومقداره فطرة بشرية. فأنبياء الله ورسله عاشوا هذا الشعور وأعلنوه؛

(١) «مسند أحمد» (١٨٩١٠).
(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (٨٢).
(٣) «صحيح البخاري» (٧٣٠٨)، و«صحيح مسلم» (١٧٨٥).

فهذا موسى وهارون، خافا من فرعون، وأعلنا خوفهما لربهما العلي القدير، الذي خلق فرعون وأرسلهما إليه، فقالا: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾.

وقال موسى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

ونبينا ﷺ خاف على أصحابه؛ فقال لملاعب الأَسِنَّة حين طلب منه إرسالهم إلى قومه: «**إِنِّي أَخَافُ عَلَيْهِمْ أَهْلَ نَجْدٍ**»[1]. وعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قَالَتْ: أَرِقَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَالَ: «**لَيْتَ رَجُلاً صَالِحاً مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ**». إِذْ سَمِعْنَا صَوْتَ السِّلَاحِ، قَالَ: «**مَنْ هَذَا؟**». قَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، جِئْتُ أَحْرُسُكَ. فَنَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى سَمِعْنَا غَطِيطَهُ[2].

قال الحافظ ابن حجر: وفي الحديث الأخذ بالحذر، والاحتراس من العدو، وأن على الناس أن يحرسوا سلطانهم خشية القتل. وإنما عانى النبي ﷺ ذلك مع قوة توكله؛ للاستنان به في ذلك. وقد ظاهر بين درعين، مع أنهم كانوا إذا اشتد البأس، كان أمام الكل[3].

١٠- وفي عمرة الحديبية، عندما أراد النبي ﷺ إرسال عمر إلى قريش في مكة لمفاوضتهم، اعتذر عمر وقال: إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بها من بني عدي أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني: عثمان بن عفان[4].

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٢/ ٥٢)، و«جامع بيان العلم وفضله» (١٨٦٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٧٢٣١)، و«صحيح مسلم» (٢٤١٠).

(٣) «فتح الباري» (٦/ ٨٢).

(٤) «مسند أحمد» (٣١/ ٢١٦)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ١٣٣).

لقد خاف عمر قريشاً، واعتذر عن عدم الذهاب إلى مكة؛ لضعف عشيرته بني عدي، وأنهم لا يقوون على حمايته. واقترح على النبي صلى الله عليه وآله وسلم إرسال عثمان؛ لأن عشيرته بني عبد شمس أقوى جاهاً ومكانة في مكة، ولن يصل إليه أحد بسوء، لمكانتهم ومهابتهم. فقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عذر عمر، وأرسل عثمان مفاوضاً عنه إلى مكة.

إن الخوف فطرة إنسانية، جعلها الله لوقاية الإنسان من الوقوع في الهلكة، فهو فطرة مثلها مثل الجوع والعطش والغضب. وهذا الخوف موجود لحماية الإنسان من الوقوع في المخاطر؛ فإذا خاف الإنسان في الموقف الذي يُخاف فيه، فهو قد استجاب هنا للفطرة التي أودعها الله فيه، ولا يعتبر الخوف هنا عيباً ولا جبناً، ولا التنكر له شجاعة وبأساً، ولكن يصبح الخوف هنا فطرة، والتنكر له تهوراً وإلقاءً بالنفس في التهلكة.

ولذا فإنا لا نتردد ولا نتلجلج، أن نقول ونعلن أننا نخاف؛ فنخاف على أبنائنا الذين نُعِّدهم لمستقبل الأمة، أن يختطفوا منا، ويقدموا طُعْمةً لآلات الإبادة والإفناء، في حروب ساحقة ماحقة، يُقْحمون فيها، بلا عتاد ولا استعداد.

ونخاف على مشاريع البناء والإصلاح، التي فنيت أعمار المصلحين في تأسيسها، وعُلِّقت الآمال الكبار على ثمارها.

ونخاف على مشاريع دعوية، أقامها دعاة وعلماء، بأناة وصبر وبصيرة؛ لاستنقاذ البشرية وهدايتها. حتى إذا أثمرت، وأينعت، وحان قطافها، ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾، ﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡ﴾؛ نتيجة مغامرة غير محسوبة العواقب.

ونخاف والله أشدَّ الخوف، ونَفْرَق غاية الفَرَق، أن نقول بعض كلمة تتسبب في سفك دم نُسْأَل عنه أمام الله، في موقف لا تنفع فيه مراوغة الحِجَاج، ولا لجاجة الجِدال، ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾.

نظرات معاصرة

١ - عند ذكر بعض الوقائع المعاصرة والنقاش حولها، **فلابد أن نتنبه إلى أمرين مهمين**:

أولاً: أن الخوض فيها لا يخلو من تدخل العاطفة، وبَحْثُنا اليوم بحثٌ علمي وليس عاطفيّاً؛ ولذلك فإن ذكر بعض الأحداث المعاصرة التي للبعض علاقة بها يجعل كلامهم مشوباً بالانفعال العاطفي.

ثانياً: أن أكثر الوقائع والأحداث التي نعيشها الآن غير واضحة الصورة، ولا مكتملة المشهد، وإن كانت واضحة في ظن بعض الناظرين إليها. لكن دور المخابرات، وتأثير الاختراقات، وما يحاك في كواليس السياسة العالمية مما لا يدرك عند النظر السطحي وتبسيط الأمور. فالسياسة مثل جبل الثلج، يظهر ثلثه، ويختفي ثلثاه تحت الماء، وكذا السياسة تظهر رسومها وأشكالها، وتَخفى مكايدها ودسائسها. وكم تم استغلال العمل القتالي باسم الجهاد، ثم قَطَفَ ثمرتَهُ من هو أشد عداوة من العدو الأول!

ومن أمثلة ذلك، بعض المعارك التي قدَّم فيها المسلمون أموالهم ودماء أبنائهم، ثم اتضح بَعدُ أنها كانت مستغلة من مخابرات دولية وقوى عالمية، وعندما حققت غرضها منها، تنكرت لها بعد ذلك وحاربتها باسم محاربة الإرهاب.

٢- البدء بالقتال سهل، ولكن المنتصر ليس الذي يطلق الطلقة الأولى، ولكن الذي يطلق الطلقة الأخيرة؛ ولذا لما طَرَحْتُ على بعض الشباب المتعجل بعض التساؤلات عن المواجهات القتالية، فقلت لهم: إن قرار البدء بأي مواجهة، لابد أن يسبقه عند كل جيش دراسةٌ استراتيجيةٌ، تجيب على تساؤلات مهمة، **منها**:

أولاً: هل لديه القدرة على الاستمرار، أم أنه إذا ابتدأ ثم طالت المواجهة، قال: لم نكن مستعدين لحرب طويلة؟

ثانياً: هل لديه القدرة على الحسم؟ لأن القتال لن يستمر إلى ما لا نهاية فلابد أن يكون لديه القدرة على الحسم في الوقت المناسب.

ثالثاً: هل لديه بعد القدرةِ على الحسم القدرة على الظفر بالنصر؟ فقد يوجد عدو ثالث ينتظر أن تنتهي المعركة ليقطف النصر وهو بكامل قوته.

رابعاً: هل لديه القدرة على المحافظة على النصر بعد الظفر به، بحيث لا يتحول النصر إلى مأزق[1]؟

فلما طرحت هذه التساؤلات عليهم ظهر أنها لم تدُرْ بخَلَدهم، وإنما كان الذي يهمهم كيف يبدأون القتال. فلما واجهتْهم هذه التساؤلات، قالوا: إذن تريد أن ننتظر حتى يأتي المهدي المنتظر، أو ينزل المسيح ابن مريم؟! فقلت: بل هناك خيار ثالث بين التهور والانتظار، وهو العمل المنتج الرشيد بدأب وأناة. وهذا ما يحتاج إلى صبر طويل، وعلم راسخ، وطول انتظار للنتائج، وأعمالٍ تتوارثها الأجيال.

---

(١) ومن العبارات الواصفة لذلك كلمة شيخنا د. عبد الكريم بكار وكان من المعارضين لعسكرة المواجهة في سورية منذ بدايتها فقال: تحرير سورية شبراً شبراً يعني تدمير سورية شبراً شبراً، وذهبت كلمته كغيرها من كلمات أهل الحكمة والعلم حينها، ثم انجلت عواقب الأمور بعد ذلك، فلا نجد وصفاً للحال أدق من هذه العبارة التي وصفت ما وقع قبل أن يقع.

إن الشاب بطبيعته يميل إلى الحل البسيط السريع العنيف، وليس لديه من الرَوِيَّة والحكمة ما يجعله يحتمل الحل البطيء والمركَّب، فهذا لا تحتمله كثير من نفوس الشباب، كما قال الأول:

إذا هَمَّ ألقى بين عينيه عزمه ... وأعرض عن ذكر العواقب جانبا

ولم يستشر في رأيه غير نفسه ... ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا[1]

ولكن العواقب هنا ليست خاصة بمن أعرض عن ذكرها، ولكنها عواقب تشمل أناساً لم يُستأذنوا ولم يَأْذنوا، وتنجَرُّ إليها شعوب ومجتمعات لم يُقَرِّروا ولم يُسْتأمروا، وليس من حق أحد أن يغامر بأمنهم ودمائهم ومصائرهم.

٣- إن لحمل السلاح تداعياته غير المنظورة ولا المتوقعة؛ فحمل السلاح، واستمراء القتال، والجرأة على اتخاذ القرار بالقتل والقتال، لا تنتهي تداعياتها بانتهاء المعركة، ولكنها تظل تتتابع بعيداً عن فكرتها الأولى ومشروعها الأول.

فهل كان الأستاذ حسن البنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يتوقع عندما أسس التنظيم الخاص، وترك السلاح بأيدي أفراد يستخدمونه بقناعاتهم وفتوى مفتيهم أن الأمر سيتطور إلى قتل القضاة ورؤساء الوزارات، ليطلق الشيخ صرخته الأخيرة متبرئاً من ذلك: ليسوا بإخوان وليسوا بمسلمين.

وهناك من صدق الشيخ حسن في ذلك ورأى أن التنظيم الخاص تجاوزه وتمرد عليه، ومنهم الشيخ الشعراوي الذي قال في مقابلة معه: رأيت عبد الرحمن السَّنَدِي يدفع حسن البنا، أي أنه تجرأ عليه وتجاوزه في قراراته[2].

(١) «الشعر والشعراء» (٢/ ٦٨٥).

(٢) «الشعراوي الذي لا نعرفه» لسعيد أبو العينين (ص ٦٩).

وهناك من لم يقبل ذلك، ورأى أن الأستاذ يتحمل المسؤولية، ومنهم الأستاذ خالد محمد خالد الذي علق على القول بعدم علم البنا بقرار التنظيم قائلاً:

هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول[1]

على أن المتفق عليه، هو أن الأستاذ حسن البنا قد ندم في آخر أيام عمره، على وجود هذا التنظيم داخل الجماعة، وعلى الانغماس في الشأن السياسي برمته، وتمنى لو أنه أبقى الجماعة على حالها الأولى عندما تأسست، تُعنَى بإعادة الناس إلى دينهم، وتوجيههم إلى عبادة ربهم، وتربيتهم على ذكر الله وحسن عبادته، وقال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لعدت بالجماعة إلى أيام المأثورات[2].

ومثل ذلك حال الدكتور عبد الله عزام غفر الله له، حين كان يجوس البلاد، ويستنفر الشباب للقتال في أفغانستان، ويقرر أنه فرض عين، وأن الوالدين لا يُستأذنان، وكيف تستأذن والدك وهو الذي يجب عليه أن يسبقك إلى القتال.

فاجتمع الشباب العرب هناك، بكثير من الحماس وقليل من العلم، ومزيج من الثقافات والتوجهات والجهالات؛ لينتج من هذا المزيج مقولات التكفير، ومحاكمات الحكومات ومن تَحكُمُهم. ثم تشكلت القاعدة التي ابتعدت كثيراً من نهج الشيخ عبد الله عزام، ونقلت القتال من أفغانستان إلى بلاد المسلمين لتشعل الحرائق هنا وهناك، ثم كانت سوأة أعمالها حين ارتكبت باسم الجهاد أحداث «١١ سبتمبر» التي لا زلنا نتلقى ارتداداتها وتداعياتها.

(١) «مذكرات خالد محمد خالد: قصتي مع الحياة» (ص ٢٨٥).

(٢) ينظر: «علل وأدوية» لمحمد الغزالي (ص ١٩١)، و«في نهر الحياة» لعبد العزيز كامل (٥٨/ ٥٩)، و«مقالات: هل ندم حسن البنا على أفكاره» لحسين القاضي.

وكل ذلك لم يكن في حساب الشيخ عزام ولا تقديراته الأُولى، ولا يمكن أن نظن رضاه عنه.

ثم تطورت القاعدة لتلد «داعش»؛ نتيجة ظروف وأحداث معينة، لتقدم للعالم الصورة الشوهاء للدين وشعائره، وللجهاد ورسالته، وعملت في المسلمين قتلاً وتدميراً، وبرعت المخابرات في اختراقها وتسييرها، حتى أوغلت في غلو الغلو، ووصلت إلى حال أحسب أن ابن لادن نفسه لم يكن ليرضاها. لكنه أراد أو لم يرد؛ فقد مهد الطريق لها، حيث انطلقت من تخوم قاعدته.

إن تداعيات حمل السلاح، لا يمكن التحكم فيها، إذا أُعطي حامل السلاح صلاحية اتخاذ القرار وتنفيذه. والسبب في ذلك، أن القتال كان قرار جماعات لا قرار دول، والجماعات ليس لقراراتها حسابات، وليس لأفكارها قواعد وضوابط.

فهي تبدأ بحرب العدو الخارجي الواضح العداوة والعدوان، ثم تنتقل إلى توسيع الدائرة بمحاربة الحكومات التي هي في نظرها أنظمة خائنة كافرة، ثم تتسع المساحة لتشمل العاملين في الدولة لأنهم أعوان للظالمين، ثم تطغى هذه المساحة لتشمل المسلمين جميعاً لأنهم مرتدون مستوجبون لإقامة حد الردة عليهم، ليتولوا هم إقامة هذا الحكم، وتنفيذ هذا الحد بلا حد.

إن حمل السلاح واستخدامه في يد أفراد أو جماعات، يحوله إلى أداة لحسم الخلاف مع كل مخالف، على تفاوت مراتب الاختلاف، ثم يتحول الأمر إلى استساغة وإدمان، فتُفتَعلُ الخصومات، ليستمر مشوار الاقتتال بنفس المنطق الجاهلي.

وأحيـانـاً عـلى بـكـرٍ أخـيـنـا إذا مـا لـم نـجـد إلا أخـانـا[1]

---

(١) ينظر: «الكامل في اللغة والأدب» (١/ ٥٥).

وهو ما كان يحصل بين فرق الخوارج التي كانت تجتمع على حرب المسلمين، ثم تتقاتل بعد فيما بينها على أيسر اختلاف.

٤- ينبغي التفريق بين الخِطَابِ الوعظي المؤثِّر، والخطاب الفقهي المحرر الذي يتحرى موافقة الحكم الشرعي، جامعاً بين الأدلة، ناظراً إلى مقاصد الشريعة، متحرياً تحقيق المصالح ودرء المفاسد. ولذا فإن العجيب أن يتقحم الفتوى والتحريض على هذا الأمر الوعاظ والخطباء، وطلبة العلم المبتدئون على تفاوت مستوياتهم، بينما لو سئل أحدهم عن مسألة من مسائل العبادات أو المعاملات الطفيفة لتوقف وتَوَرَّع، وأحال بالجواب إلى أهل الفقه والفتوى.

فكيف يكون التورع في مسائل عبادات أو معاملات مالية طفيفة ولا يحضر هذا الورع في أمر تسفك فيه الدماء، وتدمر الديار، ويُشَرَّدُ الناس عن أوطانهم؟!

إن كلام الوعاظ والخطباء المحرضين الذي يقوم على الإثارة العاطفية والشحن النفسي، ويغيب عنه التأصيل والتدليل ليس مرجعاً لإدراك الأحكام وتحريرها.

وإن كثيراً من هؤلاء هم مثل المِبْرد يَشْحذ ولا يقطع، فهم يثيرون الناس ويدخرون أنفسهم، ويعفونها مما أقحموا فيه غيرهم، ويعتذرون عن ذلك بأنواع المعاذير، ويحتالون عليه بشتى الحيل.

ولقد سمعت أحد الوعاظ المشاهير، وهو يفصل ويقرر أن الكفار إذا تقاتلوا فيما بينهم فإن الانتصار من نصيب الأقوى تسليحاً وعتاداً، أما إذا كانت الحرب بينهم وبين المسلمين فإن هذه الأسلحة تفقد تأثيرها وفاعليتها وينتصر الأقوى إيماناً؛ فينتصر المسلمون وإن قلَّ عددهم، وضَعُفَ عتادهم. وجعل يدلل لذلك بعظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، والتي هي أصل مستقرٌ في فطرة كل إنسان، وفي عقيدة كل مؤمن، وكأنما التشكيك في دعواه هذه تشكيك في قدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

وتساءلت حينها ما مصير حياة شاب متحمس سمع هذا الكلام فصدقه؟ وما مصير إيمان شاب متفكر سمع هذا الكلام فاختبره؟

٥- إن المغامرين بمصائر الأمة ودمائها إذا اصطدموا بالواقع الذي لا يجاملهم، ورجعوا بالنتائج الجائحة المدمرة، فما أسرع أن يقدموا حججاً معلبة، وأعذاراً واهية، يُخْرِجون بها أنفسهم من جريرة المصائب التي جرُّوها على الأمة! كالقول: بأننا لم نتوقع كذا، أو كنا مخططين لكذا فحصل كذا، أو لم نكن نعلم أن العدو سيفعل كذا، ونحو ذلك. وكأن العدو لابد أن يستأذنهم فيما يريد أن يفعله بهم، ويستشيرهم فيما يكيده ويخططه لهم.

ومن هذه الأعذار قول بعضهم: نحن اجتهدنا وغلب على ظننا أننا سننتصر، ونحن متعبدون بغلبة الظن. ولا أدري لو أن أحداً منهم أعطى ماله إلى مستثمر يستثمره، فغامر به مغامرة غير محسوبة ولا مدروسة، هل كان سيعذره لو قال له: غلب على ظني أني سأربح ولكني خسرت؟ أم أنه سيقيم عليه دعوى بالتفريط ويطالبه بالتعويض؟

ومن هذه الأعذار ما سمعته من بعض القتاليين، قال: لم نكن نظن أن العالم كله سيقف مع عدونا. وكأن القوى العالمية لابد أن تنسق معه قبل أن يبدأ مغامرته!

٦- إن المتعجلين في المواجهات الانفعالية غير المدروسة، يجعلون أنفسهم ومن معهم في موقع «العدو المثالي»، أي العدو الشديد العداوة، الضعيف القوة، فعداوته تبرر الانتقام منه دون رحمة، وضعفه يتسبب في إبادته بلا خوف[1].

يقول الجنرال باتون: البطولة ليست في أن تموت لأجل وطنك، ويضيع ما استثمره فيك من تعليم وتدريب، وتصبح عائلتك عالة عليه، لكن البطولة أن تقتل عدوك كي يصبح هو وأبناؤه عالة على وطنه[2].

---

(١) «العدو المثالي»، مقال للأستاذ سامي النصف في جريدة: «الأنباء».

(٢) «درس في القيادة» للقائد باتون (ص ١٠٣).

ويقول شوارزكوف: ليست مهمة القائد أن يذهب بجنوده إلى أرض المعركة، ولكن أن يعود بهم بعد المعركة[1].

لقد كنت أحسب أن طرح هذا الموضوع من تحصيل الحاصل، والتأكيد على المسلَّمات؛ لأن دلالات النصوص متضافرة عليه، ودلالات العقول متفقة عليه، والنتائج المريرة قد تكررت، والتجارب قد حَنَّكت، والمثلات قد خلت وعَلَّمت.

فتعجبت عندما رأيت أن هذه القضية على وضوح أدلتها، وتكرر نتائجها لا زالت محل جدل ونزاع، فتساءلت ما السبب في ذلك؟

ولعل من أسباب ذلك:

أ. ركام الهزائم، وتتابع المظالم، وما يعيشه المسلمون اليوم من حال التسلط عليهم، والاستضعاف لهم، والتنكيل بهم؛ مما جعل الشباب يتطلعون للخلاص من ذلك، ويختصرون طريق الخلاص فيما يحسبونه إحياءً لشعيرة الجهاد، وإحضاراً للفريضة الغائبة، فإذا أخفقوا في ذلك استعاضوا عنه بالانتصارات الموهومة.

ب. أسلوب بعض الخطباء والمربين الذين يتحدثون إلى الشباب في أكثر ما يستهويهم الحديث فيه وهو الجهاد والاستشهاد، وقصص التضحيات والبطولات والانتصارات، لأن هذه القصص والأخبار من أكثر ما يشد الشباب ويثير تفاعلهم، وكل ذلك بحسن نية، وحرصٍ منهم غالباً على إعلاء همة الشباب ورفع طموحهم، دون وعي بما يحدثه ذلك من تراكم عاطفي انفعالي في مشاعرهم. فينشأ هؤلاء الشباب والدين مختصر عندهم في الجهاد القتالي، والتضحية مختصرة عندهم في الشهادة، وهو ما يستجيب لأشواقهم في المغامرةِ والمخاطرةِ والمغالَبة، ثم يصعب عليهم بعد ذلك تصحيح هذا التصور الذي صار في قرارة وعيهم هو الدين.

(١) «في الخليج» لشوارزكوف (ص ٢٢٨).

فإذا جاء من يريد جذبهم إلى مشروع قتالي مدمر، وجد ثمة عواطف ملتهبة، ونفوساً متحفزةً، وأشواقاً متلهفة للموت والاستشهاد، فقادهم إلى حيث يريد، واستعملهم حطباً لحرائقه، التي يشعلها وتَصْلَى الأمة كلها بنارها.

وأكثر أولئك الذين يتحدثون بما يلهب الحماس من غير توجيه رشيد لا يقدرون تداعياته، ولا يرضون نهاياته، ولكن أُخذوا حينها بنشوة الحماس والتأثر الآني بالحدث والحديث. ولم يدر بخلدهم أن هناك من سيخلفهم على هؤلاء الشباب ثم يُتم الحديث مع تحديد الوجهة وتعيين الهدف الذي لم يدر بخلد المتحدث الأول ولم يكن في حسبانه.

ولكنه يتحمل جزءاً من المسؤولية؛ لأنه طرح مقدمات بدون نتائج، فتولى غيره وضع نتائجها، وأشعل وقدة حماس من غير أن يستثمرها، فجاء من أوقد ضرامها في هذه الحرائق المدمرة.

وهذه وإن كانت مرحلة مضت، وتلاها بحمد الله خطاب أهدأ وأنضج، وأكثر رشداً، وأقوم قيلاً؛ ولكن لا تزال هناك بقية ممن هم على ذاك النمط السابق، هم الأقل عدداً، ولكنهم الأعلى صوتاً، والأكثر ضجيجاً وصخباً.

إلى أسباب أخرى غير ذلك، عِلِمَها من عِلِمَها، وجهلها من جهلها، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

وفي النهاية، فإن الله أمر بالقتال في عالم الأسباب وسنن الحياة الجارية، والله لا يعْجَل لعجلة أحد، ولا يغير نواميس الكون من أجل عجلتنا وقلة صبرنا أو قلة فقهنا.

ولو كان مجرد كوننا على الحق كافياً في تحقيق النصر بأي عدد وعدة معنا، لما تحقق الامتحان والابتلاء، ولانتقلنا من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، ولانحاز

إلى الحق أشد أعدائه عداوة لأن ضمانة النصر لهم متحققة، ولرأيت رؤوس الكفر اليوم في مقدمة جيوش المسلمين؛ لأنهم قوم منصورون مهما قل عَددهم وعُدتهم، وعدوهم مهزوم مهما كثر عدده وقويت عدته، وصدق الله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٧- إن التسبب في عدوان العدو، أو إغرائه بمزيد من البطش والعنف، هو مشاركة في العدوان والبغي، وتحملٌ لمسؤولية ما يجري بعد ذلك على الأمة من ضرر. وقد نهى الله عن سب أصنام المشركين ومعبوداتهم؛ حتى لا يكون ذلك سبباً لتعديهم في سب الله بغياً وعدواً، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فلم يكن النهي عن سب معبودات المشركين تعظيماً لها، ولكنه نهيٌ للمسلمين أن يتسببوا بذلك، ونَهيٌ عن استثارة المشركين ببغي لا يستطيع المسلمون دفعه، وهو سب الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن ذلك قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبَّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبَّ أُمَّهُ»[1]. فسمى تسبب الرجل في لعن والديه لعناً منه لهما؛ لأنه استثار بتصرفه لعنهما، وتسبب في ذلك.

وهكذا فالتسبب في استثارة عدوان العدو هو في حقيقته عدوان على الأمة، والتسبب بإغرائه بمزيد من البطش والبغي على العُزل من الضعفة والمدنيين، هو في حقيقته بغي عليهم، وبطش بيد العدو بهم.

(١) «صحيح البخاري» (٥٩٧٣)، و«صحيح مسلم» (٩٠).

إن ترك القيام بالأسباب خَلَل في العقل، وإن الاعتماد على الأسباب خلل في العقيدة. وقد أُمِر المسلمون باتخاذ الأسباب، وذلك لا ينافي الإيمان بالقَدَر، وقدوتهم في ذلك نبيهم محمد صلوات الله وسلامه عليه، وحادثة هجرته أُنْمُوذَج حي لفعل الأسباب مع صدق التوكل.



أهل الثغور

اشتهر خبر الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والذي يقول فيه: من اعتاصت عليه مسألةٌ؛ فليسأل أهلَ الثغور، فإن الله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾[1].

وفي رواية: إذا رأيت الناس اختلفوا؛ فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾.

وهذا الخبر يُروى عن ابن المبارك من قوله، ويُروى من قول سفيان بن عيينة له[2].

وقد كثر تداول الخبر، والاستدلال به على أن أهل الثغور أعلم بأمر الجهاد، وأنهم هم الذين ينبغي أن يستفتوا ويرجع إليهم، وأنهم هم العلماء حقّاً، وليس غيرهم من القَعَدَةِ، وأنهم الجديرون بالهدى والسداد، ولذلك فرأيهم مقدَّم على رأي غيرهم، واجتهادُهم له الأولوية، وربما تجاوز الأمر بالانطلاق من هذا المعنى إلى تنقُّص العلماء الذين لم يَشْخَصُوا إلى هذه الثغور، ولم تغبَّر أقدامهم بالجهاد، وأنهم قد ركنوا إلى الدعة والموادعة، وألهاهم عن الجهاد وقول كلمة الحق الترفه وتفخذ النساء.

(١) «زاد المسير» لابن الجوزي (٣/ ٤١٤).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٦٥).

ورتبوا على ذلك توليد قاعدة أظهروها وأشهروها، وهي: «لا يفتي قاعد لمجاهد».

وهي قاعدة مولَّدة، ليس لها وجود في القواعد الفقهية، ولا في الكتب التي تحدثت عن الجهاد، أو كتب السياسة الشرعية، وإنما صنعها واستخدمها بعض قيادة الحركات القتالية، لفسح الطريق أمامهم؛ ليختاروا ما يريدون، ويقرروا ما يشاؤون، دون رقابة علمية، أو حسبة فقهية، حتى لو صدرت من أهل الذكر، الذين أمرنا الله أن نرد إليهم أياً من أمور الأمن أو الخوف: ﴿ **وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ** ﴾.

وكثيراً ما يستخدم هذه المقولة أهل الغلو؛ لإسقاط مرجعيات العلماء في الأمة، ومن ثم إطلاق يدهم في الميادين ليفعلوا ما يشاؤون.

وأما الكلمة التي تُروى عن الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك تحتاج إلى تأمُّل علميٍّ هادئٍ، يتطلب الوصولَ إلى الحقِّ ومعرفةَ مراد الله عَزَّوَجَلَّ من قوله المنزَّل، وتتبُّع كلام أهل العلم حولها حتى يفضيَ بنا ذلك إلى المعنى المتكامل للآية، **ولذا فإنَّ ثَمَّ معالمَ لا بد أن نقف عندها:**

أولها: أن هذه الآية آية مكية، نزلت قبل أن يفرض القتال، كما قرَّر ذلك أهل العلم[1]؛ فإن سورة العنكبوت سورة مكية، ولذا قال السُّدي وغيره: إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال[2].

وقال ابن عطية: هي قبل الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عامٌّ في دين الله وطلب مرضاته[3].

(١) ينظر: «الدر المنثور» (١١/ ٥٢٦).
(٢) «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٦٤).
(٣) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٢٦).

وقال الشيخ ابن عاشور: لم يكن يومئذ جهاد القتال[1].

وبذلك عُلم أنَّ للآية معنىً أوسع من القتال في الثغور، فإن هذه الآية نزلت في مكة قبل أن يفرض قتال، وقبل أن تكون ثمَّةَ ثغور.

ثانياً: تنوَّعت عبارات المفسرين في تفسير هذه الآية، وإن كانت ترجع إلى معنىً عامٍّ يجمعها، فقد قال ابن عباس: الذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبُل ثوابنا.

وقال الحسن بن أبي الحسن: الآية في العُبَّاد.

وقال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون.

وقال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصرُ الدين، والردُّ على المبطلين، وقمعُ الظالمين، وأعظمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر.

وقال الضحَّاك: الذين جاهدوا في الهجرة لنهدينهم سبُلَ الثبات على الإيمان[2].

وقال الشيخ الطاهر بن عاشور: هذا الجهاد هو الصبر على الفتن والأذى ومدافعة كيد العدو، وهو المتقدم في أول السورة في قوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾، إذ لم يكن يومئذ جهادُ القتال.

ومعنى: ﴿جَٰهَدُواْ فِينَا﴾؛ أي جاهدوا في مرضاتنا، بالدين الذي اخترناه لهم[3].

وبذلك يعلم أنَّ تنوُّع كلام أهل العلم في هذه الآية، يعود إلى معنى الجهاد في الفترة المكية، وهو الجهاد بمعناه العام.

(١) «التحرير والتنوير» (٢٠/ ٢١٠).
(٢) «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٦٤-٣٦٥).
(٣) «التحرير والتنوير» (٢١/ ٣٦).

ومن ذهــب من العلماء إلى تفســير الجهاد بالقتــال فهو من تفســير المعنى العام ببعض أفراده.

ثالثاً: لا تُعلم مسألةٌ علميَّة دينية أو دنيوية اعتاصت على أهل الرأي فاتخذوا هذا القرار، وكتبوا إلى أهل الثغور، ولم تكن الثغور عامرة بأفضل وأزكى ممن كانت عامرة بهم أيام أبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. ومع ذلك فقد اعتاصت عليهم مسائل كثيرة، كمسألة ميراث الجدة على أبي بكر، والكلالة على عمر، والدخول إلى بلد الوباء، وغيرها. ومع ذلك لم يكتبوا إلى الثغور، ولم يسألوا أهلها عن رأيهم، وإنما كان عمر يجمع أهل بدر ومشيخة قريش، ويَصدُر عن رأيهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾.

رابعاً: لا يُعلم في مرجِّحات الأقوال والآراء أنَّ هذا الرأي هو رأي أهل الثغور، أو أنَّ هذا اجتهاد من في الثَّغر.

خامساً: مشاهير علماء الأمة، على تتابع عصورها، كان أكثرهم علماءَ أمصار، وليسوا علماءَ ثغور، مثل سعيد بن المسيّب، وفقهاء المدينة السبعة، والزهري، والأئمة الأربعة، وغيرهم.

بل إن من العلماء من لم يَشهد معركةً قط، ولم يخرج في سرية قط، كالأئمة الأربعة فلا يُعلم لهم شهودُ معركة، ومع ذلك فإن أحكام الجهاد إنما أُخذت من فقههم، ورُجِعَ فيها إلى اجتهادهم. وما أقعدهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ عن الشخوص جبن ولا خور ولا شح بأنفسهم، ولكن علمُهم أن ما هم فيه رباطٌ وجهادٌ، ليس دون ما عليه أهل الثغور، إن لم يكن أولى وأجدى، كما قال الإمام مالك لعبد الله العمري: وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبِرٍّ[1].

(١) «التمهيد» لابن عبد البر (٧ / ١٨٥).

سادساً: إن الذي حصل في التاريخ هو عكس ذلك، فقد حصلت مُراجعة أهل الثغور في اجتهادهم، كما استدرك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أَبي عُبيد الثقفي في معركة الجسر، التي هُزم فيها أبو عبيد، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو انحاز إلي كنت له فئة[1]، فكان رأي عمر استدراكاً على اجتهاد أبي عبيد الذي كان في الثغر، وفي مواجهة الفرس.

وتاريخ الأئمة الأعلام، شاهد على أن المجاهدين كانوا يرجعون إليهم، ويستفتونهم في أمور الرباط والجهاد، ومنهم الأئمة الأربعة، فمن بعدهم، حتى عصرنا الحاضر.

سابعاً: أن الجهاد في الآية ينبغي أن يُفسَّر بمعناه العام، كما فسَّره به أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الذين شهدوا تنزيل الوحي وفقهوا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ما أنزله الله إليه.

كما روى البخاري من حديث عَباية بن رفاعة قال: أدركني أبو عَبْسٍ وأنا أذهب إلى الجمعة، فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**»[2]، وقد أورد البخاري هذا الحديث في باب المشي إلى الجمعة، وقال الحافظ ابن حجر: أورده هنا لعموم قوله: «**فِي سَبِيلِ اللهِ**» فدخلت فيه الجمعة، ولكون راوي الحديث استدلَّ به على ذلك[3].

وبذلك يَعلم كلُّ ذي بصيرة أنَّ هذه الآية في توقيت نزولها، وفي تفسير العلماء لها، وعملهم بمعناها لا تلاقي ما يحاول البعض سوق دلالتها إليه عندما يَدْخلون باسم الجهاد الذي لم تُستوفَ شرائطُه ولوازمُه في مواجهات غير متكافئة يفتاتون بالقرار الأكبر والأخطر فيها على الأمة، علمائِها وحكمائِها وذوي البصيرة والرأي فيها،

(١) «تفسير عبد الرزاق» (٩٥٢٢). وينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٣٧٤٠).
(٢) «صحيح البخاري» (٩٠٧).
(٣) «فتح الباري» (٢/ ٣٩١).

بزعم أنهم أهل الثغور وأهل الاجتهاد في أمر الجهاد، ولو غُيِّبت الأمة كلها عن قرار تصل إليها تداعياتُه وتطالها آثارُه وتبعاتُه.

إن أهم ما نعتبر به من هذه الآية هو أن نفقه منها أهمية المجاهدة بمعنى استفراغ الوسع في تطلب الحق والاجتهاد في إصابته على مراد الله ورسوله، وصدق اللجأ إلى الله أن يصيب بنا الحق، ومن كان كذلك فهو حري أن ينال موعود الله في هذه الآية: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

وخلاصة الأمر أن المفتي يجب أن يكون عالماً بنصوص الشرع، وواعياً بالواقع الذي هو محل تنزيل نصوص الشرع ومحل الاستفتاء. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والواجب أن يعتبر في أمور الجهاد برأي أهل الدين الصحيح الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا[١]. ومن كان كذلك وجب عليه أن يفتي إذا سُئل حتى لو لم يكن في أرض المعركة، ويحرم الإفتاء على المجاهدين إذا كانوا غير ملمين بأحكام الشريعة فيما يتعرضون له من نوازل ومستجدات، ولا معنى حينئذ لمقولة: «لا يفتي قاعد لمجاهد» التي يشهرونها في وجه كل صاحب رأي أو انتقاد؛ حتى لو كان من أهل العلم المتجردين المخلصين؛ فإن الجهاد بالكلمة جهاد، والاشتغال بالعلم والتعليم «نفير» كما أسماه القرآن: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾[٢].

إن علينا أن نجاهد أنفسنا على الانقياد لدلالات النصوص، لا أن نسوق دلالة النص لندافع بها عن آرائنا واجتهاداتنا، فضلاً أن نجعل من دلالات النصوص المنتقاة قنطرة

(١) «الفتاوى الكبرى» (٥/ ٥٣٩).

(٢) ينظر مقال: «لا يفتي قاعد لمجاهد في ميزان القواعد الفقهية» د. وصفي أبو زيد.

للوقوع في أعراض علماء يخالف رأيُهم رأيَنا، واجتهادُهم اجتهادَنا، وليسوا بأقل منا حرصاً على تطلب الحق وإصابته.

وعلينا أن نحذر أن نقع من حيث لا نشعر في التترس بدلالةٍ ننتقيها من النص انتقاءً لتسعفنا في أمر قد فرغنا منه، أو تُعذّر لنا في مزلة قد تورطنا فيها.



«أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»

كان من جنوح القتاليين في الاستدلال بالنصوص، وتوظيفها، وجعلها تبعاً لأهوائهم، استلال الحديث الصحيح المحكم، وهو قوله ﷺ: «**أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**»[1]، ثم استخراج فهم خاص منه، وهو أن غير المسلم في جزيرة العرب مستباح الدم.

وتبنت القاعدة في جزيرة العرب تنفيذ هذا الأمر بفهمها وطريقتها، فقامت بالتفجيرات في مدينة الرياض، في المجمعات السكنية التي يسكنها غير المسلمين، وتم اغتيال عدد من الأجانب في الرياض، بالطريقة المعروفة المشهورة لديهم، وهي النحر.

وصحب هذه الأعمال ضحايا كثر من المسلمين لم تأبه بهم القاعدة، وأحسب أنهم سيوظفون نصاً آخر في التخلص من مسؤولية قتلهم، وسيقولون: يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ.

وكم أحدث هذا الانحراف من مآسٍ وكوارث، وتشويه للدين وأهله، وكانت محنة قاسينا شدتها وكربها، وعاها من وعاها، ونسيها من نسيها.

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٥٣، ٣١٦٨، ٤٤٣١)، و«صحيح مسلم» (١٦٣٧).

وأحسب أن كثيرين ممن لم يعايشوها سيستغربون خبرها، بل سيستبعدون وقوعها، وحق لهم ذلك.

وقد كتبت حينها مناقشة هادئة للاستدلال بالحديث، وكشف الجنوح في فهمه وتوظيفه، ورأيت إعادته بنصه هنا كما كتبته حينها؛ ليتضح كيف يتم تحريف الأدلة وتفخيخها، وكيف يستدرج البسطاء بأشواق الجهاد إلى هذه الورطات، ثم يلقى بهم في دركات المهالك، وهذا نصه[١]:

هذه دعوة للتأمّل في النصوص وتفقهها، ودعوة للوقوف مع الأنفس ومراجعاتها، دعوة تتجاوز الاستنكار إلى الحوار، دعوة إلى الذين تشبّعوا بفكرة الأعمال القتالية في هذه البلاد، ورأوها أقصر طريق إلى الجنة، وأزكى عمل يتقربون به إلى الله.. وإن زهقت فيه أرواحهم، وخالفهم كل من سواهم.

لا أسوقها مناظرة ولا ردّاً، ولكنها دعوة إلى وقفة مع النفس، وتفقّه في النص، وتطلّب للحق، ثم نواصينا بعد بيد الله؛ فهو الموفّق والهادي إلى سواء السبيل، نلوذ به ونبرأ إليه من حولنا وقوتنا فلا حول ولا قوة إلا به.

إن أكثر الأدلّة النصية تداولاً في هذه القضية حديث: «**أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**». وهو حديث صحيح غير ضعيف، محكم غير منسوخ قاله ﷺ وهو على فراش الموت قبل وفاته بخمس. وإن أولى الأمة أن يتبع في معرفة فقه هذا الحديث صحابة رسول الله ﷺ؛ فهم الذين سمعوا هذا الحديث وأدوه إلينا وفقهوه عن رسول الله ﷺ، ورأيهم وفقههم هو الأعلم والأحكم لأنهم أعلم بملابسات الأمر النبوي، وأفقه الأمة بمراده ﷺ.

---

(١) نشر المقال في موقع «الإسلام اليوم» بتاريخ: (١٦/ ١١/ ٢٠٠٦ م).

وأوْلى الصحابة أن يراعى فقهه، هم الخلفاء الراشدون لقوله ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**»[1]، وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اقْتَدُوا بِالَّذَيْنَ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ**»[2]، ولأنهم كانت لهم الولاية على المسلمين فهم أوْلى الناس بإنفاذ هذا العهد المحمدي.

فإذا نظرنا إلى فقه الصحابة لهذا الحديث رأينا ما يلي:

١- تولى أبو بكر الصديق الخلافة واليهود في خيبر على مسافة (١٨٠ كم) من المدينة، ونصارى نجران في نجران، ويهود اليمن في اليمن، ومجوس الأحساء في الأحساء. وهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أعلم الناس بأمر النبي ﷺ، وأعظم الأمة تعظيماً له؛ **فنجد أنه:**

أ- سيّر جيش أسامة إلى الشام.

ب- قاتل المرتدّين في أنحاء الجزيرة النائية عن المدينة.

ج- ثم لما فرغ من قتال المرتدّين، وجّه الجيوش إلى العراق والشام، ثم توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجيوشه تقارع الفرس والروم وهؤلاء موجودون ولم يخرجهم.

٢- تولى عمر الخلافة فترك يهود خيبر في خيبر، ونصارى نجران في نجران، ومجوس هجر في هجر، واشتغل بقتال الكفار في خارج جزيرة العرب فاستكمل فتح فارس وفتح الشام، ثم سيّر الجيوش إلى مصر وفتح قبرص. فكانت جيوش الخلافة تقاتل في القارات الثلاث آسيا وأوروبا وأفريقيا، وهؤلاء على أماكنهم في جزيرة العرب. ولم يخرج عمر منهم إلا يهود خيبر لما نقضوا العهد وتعدّوا على ابنه عبد الله فزحزحهم إلى تيماء، ونصارى نجران لما أخلفوا شرط الصلح مع النبي ﷺ -الذي

(١) «مسند أحمد» (١٧١٤٢)، و«جامع الترمذي» (٢٦٧٦)، و«سنن ابن ماجه» (١٨٦٥).
(٢) «جامع الترمذي» (٣٦٦٢)، و«سنن البيهقي» (٩٧).

شرط عليهم عدم التعامل بالربا- فأجلاهم عمر لما خالفوا ذلك، وأبقى يهود اليمن فهم باقون إلى يومنا هذا، ومجوس الأحساء حتى أسلموا واندمجوا مع المسلمين ولم تعد لهم باقية(١).

إن هذا يجعلنا نتساءل عن فقه الخلفاء الراشدين لهذه القضية، ولماذا لم يجعلوها قضية ملحة ناجزة. ألا يدل ذلك أنهم فقهوا أن المنهي عنه ليس مجرد وجود اليهود والنصارى في جزيرة العرب، ولكن أن يكون لهم كيان استيطاني دائم؟ وأما وجودهم الطارئ كأجراءَ ومعاهدين ومستأمنين فليس هو مراد النبي ﷺ، وإلا لما تركهم الخلفاء الراشدون وذهبوا يفتحون آسيا وأوروبا وأفريقيا، وأبقوهم طوال تلك المدة على تخوم المدينة النبوية أجراء في خيبر، وسمحوا بالرقيق من الكفار أن يسكنوا المدينة لأنهم تبع لأسيادهم، حتى إن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُتل على يد علج مجوسي ومع ذلك لم يأمر بإخراجهم ولا أخرجهم من بعده.

ثم إن الصحابة الذين فقهوا هذا الأمر النبوي لم يفقهوا منه استحلال دم أحد من اليهود أو النصارى لكونه في جزيرة العرب، فلا نعلم أثراً صحيحاً أو ضعيفاً يروى في قتل يهودي أو نصراني لأنه دخل جزيرة العرب، فأين أخرجوهم من إهدار دمائهم وقتلهم؟

أيضاً نلاحظ أن هذا الأمر قد ألقاه الصحابة إلى الخلفاء ولم ينقل أن أحداً من آحاد المسلمين تجرأ على يهودي أو نصراني بحجة أن يجب إخراجه من جزيرة العرب ولا كانت تلك القضية مثارة بينهم، وإنما تركوا هذا الأمر لمن توجه إليه في قوله ﷺ: «**أَخْرِجُوا**» وهم ولاة الأمر الذين تناط بهم القضايا العامة.

(١) «أحكام أهل الذمة» لابن القيم (١/ ١٧٥-١٩١).

ألا يدل ذلك على أننا بحاجة إلى التفقّه في النص النبوي على وفق فهم الصحابة رضوان الله عليهم، لا على وفق انفعالاتنا ومشاعرنا؟ وأنه ينبغي أن نعلم أن النصوص النبوية تؤخذ مضمومة إلى بعضها وتفهم على وفق فهم الصحابة الذين سمعوها وأدوها وفقهوها ورعوها حق رعايتها. وألا نسمح لمشاعر الغضب والقهر وما يدمى في قلوبنا من مآسي المسلمين أن تدفعنا إلى الشطط والبغي في فهم نصوص الهداية النبوية.

فإلى كل من يؤمن بالله ويعظمه، ويحب الرسول ويوقره، ويغضب لله ويغار على حرماته، ويخشى الله فهو أحق أن يخشاه:

تذكّر أن نبيك ﷺ الذي قال: «**أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**». هو الذي قال: «**اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ**»، وهو الذي قال: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**»[(١)]. وقد علمت هديهم رضوان الله عليهم وأين منه ما يجري بين ظهرانينا.

تذكر أن نبيك ﷺ الذي قال: «**أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**». هو الذي قال: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَداً لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَاماً**»[(٢)]. ومن أحب رسول الله ﷺ وعظمه عظم أمره كله ووقره واتبعه.

إذا هممت بهذا الأمر وما يترتب عليه من سفك الدماء وزهوق الأنفس وأنت تعمله وترى أنه يقربك من الله زلفى، وأنه أقصر طريق إلى الجنة، وتغامر فيه بروحك التي لا عوض لها تذكر أن على من يبذل هذا كله عليه قبل ذلك أن يدعو ربه الذي إليه منقلبه أن يهديه للحق، ويلح على الله أن يهديه فيمن هدى، وأن يستعيذ بالله من مضلات الفتن،

---

(١) «مسند أحمد» (١٧١٤٢)، و«جامع الترمذي» (٢٦٧٦)، و«سنن ابن ماجه» (١٨٦٥).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٩١٤).

فأعذر إلى الله بكثرة سؤاله والانطراح بين يديه أن يريك الحق حقّاً ويرزقك اتباعه، وأن يكون ذلك وأنت في حال من التجرد وقد نزعت قناعاتك المسبقة، ولم يبق أمام عينيك عظيم تعظمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الإنسان إذا سأل ربه متجرداً عن قناعاته وليس مقرراً لله برأيه فإن الله يهديه ولا يضله، ويأخذ بيده ولا يخذله.

تذكر إذا أردت أن تحدث حدثاً أو تفعل فعلاً أنك تستطيع الآن أن تتحكم في نفسك أن تفعل أو لا تفعل، لكن إذا فعلت فإنك لا تستطيع أن تتحكم في تداعياته، ولا أن تسيطر على نتائجه، وقد يكون هذا الفعل سبباً لتداعيات وأحداث هي شر مستطير على المسلمين، وتكون أنت السبب في كل ما حدث، ويكون فعلك ذريعة مسوغة لعدوان على المسلمين لا يستطيعون صده ولا رده، وذريعة لأهل الكفر يتسلطون بها على أهل الإسلام ويستبيحون بها ما لم يستبيحوه بعد من حرماتهم.

تذكر أن الشيطان لا يأتي الإنسان فيدعوه للشر باسم الشر ولكن يلبس عليه الشر بلبوس الخير فمنذ قال لأبينا آدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ وهو يخاتل الناس ويلبس عليهم دينهم، ولذا فإن كثيراً من أهل البدع والأهواء قد تقحموها وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً، وكم سفكت دماء وانتهكت حرمات ممن كانوا يرون أنهم بذلك يصلحون ولا يفسدون، فليست النوايا ولا الدعاوى دليلاً على صواب العمل فكم من وجوه في النار خاشعة كانت في الدنيا عاملة ناصبة.

تذكر –هداك الله– أن وجود هؤلاء الأجانب ليس شيئاً طارئاً علينا فقد عاصرهم قبلنا علماء أعلام ولم يقولوا بمثل ما قلت، ولا دعوا إلى مثل ما دعوت، وجدوا وكان ثمة: الشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ عبد الرحمن بن سعدي، والشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ الأمين الشنقيطي، والشيخ عبد الله بن حميد، والشيخ عبد الرحمن الدوسري،

والشيخ عبد الرزاق عفيفي، والشيخ محمد بن عثيمين -رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ- وغيرهم. ألا يثير هذا في نفسك تساؤلاً حقيقياً: هل هؤلاء الذين أعمارهم مع العلم أكثر من أعمارنا منذ ولدتنا أمهاتنا لم يفطنوا إلى ما فطنا إليه ولم يعلموا ما علمناه؟

ألا يثير ذلك تساؤلاً في نفسك، أنهم ربما كانوا هم على الحق، وأنك قد ضللت الطريق وأصبت غير الهدف؟

تذكر أن الإقدام على أمر خطير كهذا يوجب عليك بذل الجهد في تطلب الحق وسماع كلام العلماء مهما كان رأيك فيهم، وملاحظاتك عليهم، فرب كلمة تفتح أمامك باباً أو تكشف حجاباً، وإن النزوى والبصيرة في هذه الأمور العظام وتطلب الحق من مظانه وبذل الجهد في تحريه خير من أن يظل الإنسان أسير فكرة ورأي واحد مع إغلاق منافذ فكره عن وجهات النظر الأخرى التي ربما كان الحق المتمحض فيها.

تذكر أن هذه القضية كلها وهي إخراج المشركين من جزيرة العرب هي محل اختلاف بين العلماء الراسخين والأئمة المتبوعين.

فعن الإمام أحمد رواية أن جزيرة العرب المدينة وما والاها[(١)]، وقال الشافعي: يمنعون من الحجاز وغير الحرم منه يمنع الكتابي وغيره من الاستيطان والإقامة به، وله الدخول بإذن الإمام لمصلحة...[(٢)]، وأما أبو حنيفة فعنده لهم دخول الحرم كله حتى الكعبة نفسها لكنهم لا يستوطنون به، وأما الحجاز فلهم الدخول إليه والتصرف فيه والإقامة بقدر قضاء حوائجهم[(٣)].

---

(١) «أحكام أهل الذمة» (١/ ١٧٧).

(٢) «أحكام أهل الذمة» (١/ ١٨٤).

(٣) «أحكام أهل الذمة» (١/ ١٨٨).

فإذا كان أئمة الهدى المتبوعين قد اختلفوا هذا الاختلاف وهم أفقه الأمة وأعلمها بحديث رسول الله ﷺ، وأعظمها اتباعاً له، فهل يحق لأحد بعد ذلك أن يختصر الأقوال كلها في رأي ترجح له دون غيره، ويسلك في حمل الناس عليه سفكَ الدماء واختلالَ الأمن وما يتداعى بعد من مفاسد.

وإن كان في مقابل قوله هذه الأقوال ومقابل علمه علم هؤلاء الأعلام؟!

تذكر أن الطريق الذي تسلكه بل النفق الذي تدخله قد سلكه جماعات في بلدان قريبة ثم كانت عاقبة أمرها خسراً.

انظر إلى جماعات العنف في مصر التي خاضت المواجهة عشرين سنة ثم أعلنت بعد ذلك تراجعها وأنها تأسف لذاك الخلل الفكري.

انظر إلى جماعات العنف في الجزائر التي خاضت مواجهات عنيفة مريعة ثم ألقى أكثرهم السلاح ودخلوا في قانون الوئام وخيراً فعلوا، لكن ماذا كان إنجازهم في الجزائر، لا نعلمه إلا كثرة المقابر.

فهل نستنبت في بلدنا مآسي قد أثمرت ثمارها المرة عند غيرنا، أليس السعيد من وعظ بغيره، هل تريد أن نكون أشقياء لا نوعظ إلا بأنفسنا؟

وختاماً.. أذكر الذين ربما يهمون بمثل الأعمال السابقة من قتل أو اختطاف، أو قتل للرهائن أذكرهم ذمة إخوانهم المسلمين فإن المسلمين يجير عليهم أدناهم، وقد أجار النبي ﷺ من أجارته امرأة فكيف بمن أجارته جماعة المسلمين.

أذكر بما قرره أهل العلم من أن الكافر الحربي إذا فهم من إشارة مسلم أنها أمان فاستأمن فهي أمان وإن لم يقصد المسلم بها ذلك كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره[1].

---

(١) ينظر: «الصارم المسلول» (ص١٢).

فإذا كانت الإشارة غير المقصودة تصبح أمانا إذا فهمها الحربي أماناً فكيف بالمعاهد الذي دخل في ذمة حكومة المسلمين وجماعتهم وفهم أنه صار آمناً بأمان المسلمين له؟

ولذا فإن المراجعة واتهام الرأي في هذه القضايا العامة والخطيرة ضرورة ما بعدها من ضرورة، فوالله لأن ترجع إلى حق اعتقدته فتوصف بين أصحابك بأنك متخاذل وجبان ومتراجع خير لك عند الله من أن تلقاه بكف من دم حرام سفكته في غير حله.



الحرب خَدعة، فمن يُخدع؟

الحرب خَدعة، أي مخادعة للعدو بما يربك توقعاته، ويحبط مخططاته، ويُفشل مكائده، ولذا قال ﷺ: «الْحَرْبُ خَدْعَةٌ»[1]. وكان إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها ليضلل عيون العدو ورصده[2].

ولكن بعض القتاليين حرَّفوها لتكون خديعة للمسلمين، وتغريراً بهم في حقيقة القتال وما يجري على أرض الواقع، ومن ثم استجازوا اختلاق الكرامات، وادعاء الانتصارات، ووصف الأحوال بغير ما هي عليه، وذلك لاستدراج من لم يلحق بهم، وإغراء من يتبرع لهم، وتوسيع دائرة الوهم، وحجب الحقيقة التي لن تُحجب. فكم سمعنا عن الدماء برائحة المسك، ومشاركة الملائكة التي لا ندري من رآهم، وعدد قتلى الأعداء الذين يفوق عدد جيوشهم، والانتصارات التي تُبشِّر أن حسم المعركة تم، أو أوشك أن يتم، وقد سمعنا مثل ذلك في أفغانستان، ثم في الشيشان، ثم في العراق، ثم في سوريا، وكأنه داء يوجد كلما وجدت مواجهة، أو ثارت معركة.

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٢٩)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٦).
(٢) «صحيح البخاري» (٢٩٤٧)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

ولكن هذه الدعاوى سرعان ما يفضحها الواقع، فتتكشف حقيقتها، ويفتضح زيفها، وتلحق معرتها بكل الذين صدقوها وسوقوها، وهي خداع للمسلمين وتغرير بهم وليس مخادعة للأعداء وإيقاعاً بهم.

والعجيب أن هذا هو أسلوب الأنظمة الثورية من قبل، ففي الأيام الأولى من حرب حزيران (٦٧) كان اليهود يعيشون نشوة انتصار كبير في معركة بدت محسومة من ساعاتها الأولى بالضربة القاضية، وكان نصرهم أكبر من دولتهم ومن إمكاناتهم بل ومن طموحهم.

وكانت جماهير العرب تعيش أيضاً نشوة نصر موهوم، فقد كانت البيانات العسكرية والعناوين الكبرى في الصحف تنقل إليهم أخباراً لم تحدث إلا في الخيال عن عدد الطائرات الإسرائيلية التي أُسقطت، وقتلى الصهاينة، واندحار جيش العدو، وخرجت صحيفة الأهرام في يوم (٦/ ٦/ ١٩٦٧م) بالعناوين التالية:

- قواتنا المدرعة تتوغل داخل خطوط العدو.
- إسقاط أكثر من (٨٦) طائرة للعدو وأسر وقتل عدد من طياريه.
- معارك ضارية مع العدو على طول الخط توجه له قواتنا ضربات متلاحقة وتلحق به خسائر فادحة في البر والجو.

ولكن عمر هذه النشوة كان قصيراً؛ إذ سرعان ما بَدَّدَت الحقيقةُ ضبابَ الوهم، وأفاقت جماهير العرب على صدمة الهزيمة التي سميت: «نكسة»، وخسرت الأنظمة الثورية المعركة، وخسرت معها مصداقيتها لدى الجماهير التي اكتشفت أن هذه الأنظمة إنما كانت تُريغُها بكواذب الوعود وأكاذيب الأخبار، واتضح أن حبل الكذب مهما طال فهو قصير، وكان درساً بليغاً لمن يعي، وعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

واليوم نعيش صورة أخرى مقلوبة لذلك التاريخ، في مواقع المواجهات القتالية من خلال الإشاعات التي تُسَوِّقُ الأماني على أنها أخبار، فتنشرها مواقع ورسائل على شبكة الإنترنت؛ لتبثها للناس على أنها بشائر، فتتلقفها قلوب الطيبين على أنها حقائق لا تقبل الشك، جاءت من مصادر موثوقة، ولئن ثبت وقوع شيء من ذلك فقد بقي الكثير منه ركاماً من الشائعات يستطيع من شاء أن يقول لنا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾!

وهنا نقف أمام حقائق نُذكِّر بها أنفسنا، والخيرين الذين يتلقفون هذه الأخبار ويبشرون بها غيرهم بنيات طيبة وقلوب سليمة، ونعظ بها أولئك الذين اختلقوا هذه الإشاعات وتولوا ترويجها.

١- أن علينا أن نكون يقظين في تلقي هذه الأخبار، وألا يشفع لقبولها ملاقاتها لرغباتنا وأمانينا، فلنا منهجية في التثبت ينبغي أن تكون مطردة فيما نحب ونكره، فليس صحيحاً أن نشكك في الخبر المصور من أرض المعركة، ونثير تساؤلات الشك والريبة حوله مع أن منتهاه الحسّ، في حين نتقبل خبراً ينشر عبر رسائل الجوالات مصدره بعض مواقع الإنترنت، وإذا كان هناك من يتقبل مثل هذه الأخبار، فلْيعلَم أن الناس لن يصدقوه، وليحْذَر أن يجعل نفسه عرضة للتكذيب، وقديما قيل: من تتبع غرائب الأخبار كُذِّب.

٢- علينا أن نَحْذر من جهالة المصدر، وليس خبرٌ أهم من أخبار السنة النبوية ومع ذلك فليس من منهج المسلمين قبولها من المجاهيل، ولذا فلا بد من تلقي الأخبار من مصدر موثوق، فإن لم يكن موثوقاً فلا أقل من أن يكون معلوماً، بحيث ينال شرف الصدق، وتلحقه معرة الكذب، وبئس مطية الرجل زعموا.

٣- إذا كان هناك من استجازوا اختلاق هذه الإشاعات بأنواع التأولات فإن علينا أن نرفض جعل أنفسنا رواحل لنقلها، نُصَدِّقها ثم نُسَوِّقها، فمَن حدَّث بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين[١].

٤- مما يتأوله هؤلاء الذين يختلقون تلك الإشاعات أنها من الكذب في الحرب وهو مباح، ويتجاهلون ولا يجهلون أن القدر المباح من الكذب في الحرب هو الذي يضلل الأعداء وليس الذي يُسَوِّق الوهم ويُغَرِر بالمسلمين.

٥- إذا كنا خسرنا جوانب من المعركة، فإن علينا ألا نخسر الصدق الذي هو رأس مالنا في التعامل مع الناس، وسيطول استغراب الناس وعجبهم إذا اكتشفوا أن هذه الأخبار الكاذبة كانت تنقل إليهم عبر وسيط صالح، ومن جُرَّب عليه الكذب، أو نَقْل الكذب وتَصديقه فلن يكون محلاً للثقة بعد ذلك.

٦- وكما سيفجع الطيبون، فيرتابون في الراوي الذي كان الصلاح يظهر عليه، لأنه كان يحدثهم بهذه الأخبار ويؤكدها لهم، فكذلك سيشمت آخرون، ليقولوا: هذه أخبارهم، وهذه مصداقيتهم! وسيجد كل من شَرِق بالصحوة فرصة في تعميم هذا الخطأ، ووصف طلائع الصحوة كلها بهذا السلوك، فاللهَ اللهَ أن نُفَرِّح شامتاً، أو نضع في فم كاشح حجة.

٧- لئن كان الصدق فضيلة إسلامية، ومروءة عربية، فإن الكذب فاحشة حرمها الإسلام، وأنف منها مشركو العرب، حتى قال أبو سفيان -وهو مشرك-: لولا أن يأثر الناس عليّ كذباً لكذبت عليه[٢]، يعني هرقل. فلم يكن يقبل أن يوجد في تاريخه كذبة ولو كانت على عدوه محمد ﷺ عند هرقل ملك الروم.

---

(١) مقدِّمة «صحيح مسلم» (١/ ٩). ورُوي بلفظ: «مَنْ رَوَى عَنِّي حَدِيثاً يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبَيْنِ». «مسند أحمد» (١٨١٨٤)، و«جامع الترمذي» (٢٦٦٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٩٤١)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٣).

وإننا نخشى من التوسع في رواية هذه الإشاعات حين تنجلي حقيقتها بغير ذلك فَيَأْثِرَ الناس على مروجها كذباً كثيراً.

٨- إن اختلاق الإشاعات وسرعة تصديقها مهرب نفسي أمام واقع لا يرضاه المرء ولا يستريح إليه، وقديماً قال أبو الطيب:

طَوَى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ فَزِعْتُ فيه بآمالي إلى الكَذِبِ

حتى إذا لم يدع لي صدقه أَمَلاً شَرِقْتُ بالدمع حتى كاد يشرقُ بي[(١)]

فتجد النفس سلوتها في تكذيب مالا يروق لها واختلاق الإشاعات وترويجها، إلا أنها ترضخ في النهاية لسلطان الحقيقة القاهر، ولكن هذه الحيلة النفسية لا تصلح أن تكون مهرباً لأتباع محمد ﷺ الذي علَّمهم فضيلة الصدق وأمرهم بتحريه فقال: **«عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ يَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً. وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَالْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً»**[(٢)].

٩- إن تسويف الإحساس بالواقع، والتقنع بأغطية الوهم، وأعظمها تصديق الشائعات وترويجها، سيضاعف فداحة الخسائر وأعظمها خسارة القيم، ألا وإنَّ الصدق أعلاها وأغلاها، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

١٠- إن الاعتراف بالحقيقة أولى الخطوات في معالجة الأزمات وتجاوزها، كما أن مغالطتها وسترها أعظم أسباب تكريسها وتجديدها ومعاودتها. والحقيقة المرة خير من الوهم المريح.

---

(١) «الوساطة بين المتنبي وخصومه ونقد شعره» للجرجاني (ص١٤٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٠٩٤)، و«صحيح مسلم» (٢٦٠٧).

١١- وكما نتواصى بعدم نقل هذه الأخبار، فإن علينا تبصير من ينقلونها بطيبةٍ وحسن قصد، ومواجهتهم بالحقيقة، وعدم مجاملة المشاعر على حساب العقل والنقل، وانتشالهم من غبش المغالطة، إلى وضوح الحقيقة، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة.

وكما يقع الكذب في الأخبار، يقع التضليل في التحليل.

فإذا تكشفت المعارك عما لا يمكن إنكاره، قامت الأنظمة الثورية المغامرة بتجميل الهزيمة، وتلطيف المصيبة، فالهزيمة الماحقة نكسة، وحالة الاستسلام حرب الاستنزاف، وأم الهزائم أم المعارك، وهكذا.

وللجماعات القتالية سلوكها الموازي لذلك، فإنها بعد الهزائم تصنع انتصارات مشاعرية لا يمكن تحديدها ولا قياسها من مثل: إن هذا القتال مهما كانت نتيجته فقد مسح غبار الذل، وأحيا العزة، وأعاد الكرامة، ونحو ذلك من المكاسب المعنوية المدعاة، التي تُسترُ بها فضيحة الهزيمة وفجيعة المصيبة.

وهذه المكاسب المعنوية المزعومة يسهل ادعاؤها في كل واقعة ونقيضها، لأنها ليست شيئا محسوساً يمكن تشخيصه، ولا مُقدَّراً يمكن قياسه، وإنما هو براعة لفظية يغالط بها الأكثر جدلاً، ولكن هذا لا يغيِّر الواقع ولكنه يعمق الخطأ ويبرره، ويحول دون الوعي به وتصحيحه.



نقد التجارب القتالية

لما خرجت الصفوة الصافية مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى معركة أحد ثم أصابتهم المصيبة قتلى وجرحى، وفجعوا بها، وتساءلوا عنها، لم يتأخر الأدب الرباني عن هؤلاء الخيرة الأخيار فجاءهم الجواب والعتاب قبل أن تجف دماؤهم أو تبرأ جراحهم، قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾.

وجاءت آيات القرآن تكشف دخائل النفوس ومكنونات الضمائر، وتبين مواضع الخلل فيها في مسيرتهم الجهادية؛ فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾، ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾.

ولم يكن على الأرض أبر قلوباً، ولا أصدق إيماناً، ولا أزكى جهاداً من أصحاب رسول الله، وهم معه صلوات الله عليه وسلامه. ومع ذلك كان الأدب الإلهي يتعاهدهم فيكشف مواضع الخطأ ويعاتب على التقصير، وبهذا الأدب القرآني تستقيم النفوس،

ويزكو الجهاد، ويُتجَنب الخطأ فلا يكبر ولا يتكرر، وهذا هو الأسلوب الذي طبقه النبي ﷺ في تربية الصحابة، وتزكية جهادهم.

فعن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلاً مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، وَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ لِي: «**يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذاً، قَالَ: فَقَالَ: «**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟**». فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ[(١)].

فنلاحظ هذا العتاب الشديد لخطأ أسامة، مع أنا نستطيع أن نُخَرِّج له بطريقتنا مئة عذر وعذر، فهو قتل رجلاً في ساحة المعركة، وقتله بعد أن أوجع في المسلمين قتلاً، وشهد الشهادة بعد أن رأى بارقة السيف، ولكن النبي ﷺ لم يقبل هذه الأعذار والتبريرات كلها. لقد كان النبي ﷺ يصحح الخطأ، حتى وإن وقع من مجاهد امتلأت نفسه بالحمية للدين، وقدم روحه جهاداً في سبيل الله.

وعندما قتل خالد أسراه وهم يقولون: صبأنا صبأنا، قال ﷺ: «**اللَّهمّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ**»[(٢)]. وهذه تخطئة لخالد، ثم دفع ديات هؤلاء القتلى جميعاً.

لقد كان الخطأ يقع من الصحابة على نُدرة، ولكنه كان يُتَعقَّب بالتصحيح السريع، وما كان هؤلاء المجاهدون الأخيار البررة يرون أن جهادهم يعطيهم عصمة عن المحاسبة وتصحيح الأخطاء.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٦٩، ٦٨٧٢)، و«صحيح مسلم» (٩٦، ١٥٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٣٣٩).

إن تصحيح الخطأ جعل جهاد الصحابة في غاية النقاء فلما ساحت جيوشهم بعد وفاة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فاتحة قَدَّموا أروع وأنبل صور الفتح، ولذلك دخلت الأمم التي غزوها فاتحين في دين الله أفواجا؛ لأنهم رأوا صورة نقية للجهاد الذي لا يبغي علوّاً في الأرض ولا فساداً، وكان تصحيح النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ للأخطاء في حينها سبباً من أسباب رشد هذا الجهاد ونقائه، وقَدَّم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من خلال ذلك درسا بليغا؛ أن نقد التصرف وتقويمه لا يعني نقد الشعيرة، وانتقاد عمل المجاهد ليس انتقاداً للجهاد، وانتقاد صلاة المسيء صلاته ليس نقداً للصلاة.

إن المجاهدين مهما بلغ اجتهادهم وعظمت تضحيتهم فليسوا بمنأى عن النصح والتقويم، والنقد والتسديد، وليس لهم ادعاء الكمال ولا ادعاؤه لهم.

ولكن الواقع في التجارب القتالية المعاصرة هو التجافي عن التقييم برغم فداحة الأخطاء، وتكرارها، وضخامة التبعات والتضحيات وتكاثرها.

وكثيراً ما تكمم أفواه الناصحين بمثل: لا تنثروا الملح على الجراح.

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم.

إذا لم تنصروهم فلا تخذلوهم.

ونحو ذلك.

فإذا وقعت مغامرة غير محسوبة، فأعقبت هزيمة مريرة، وطالَبَ أهلُ الرشد بتقييم هذا العمل قيل لهم: ﴿فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ونُزِّلت آيات المنافقين على الناصحين.

وكثيراً ما أُلجئنا إلى الحيلة النفسية القديمة وهي تَلَبُّس خطاب الله لأصحاب نبيه بعد مصيبة أحد: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، لنجعله وصفاً لنا بعد كل مصيبة تجرها

مغامرة غير محسوبة العواقب، فنقول: إن ذلك إنما وقع لتمحيص المؤمنين، وتمييز الصف، وهكذا تتعاقب أجيال إثر أجيال، وتتكرر مآس بعد مآس وحجة التمحيص لاتزال تُردد.

وبذا يغلق الباب أمام أي تقييم لأي تجربة استنزفت فيها الدماء، وأهدرت الأموال، ودمرت الديار من غير أن يتساءل أحد: إلى متى سيستمر هذا التمحيص؟ ومتى سيأتي هؤلاء الممحصُّون؟

بينما يتم الإعراض عن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾، لنقف مع أنفسنا ونتساءل عن تسببنا نحن فيما أصابنا.

وأحياناً يشغب على الناصحين بأن ذلك طعن في شعيرة الجهاد، وينقل نقد الممارسة إلى نقدٍ للشعيرة ليكون أي نقد لتصرف أي مجموعة قتالية نقداً لشعيرة الجهاد.

وأحياناً تكمم الأفواه بمثل: ليس هذا وقته، أو يرجم الناصح بالشماتة بالمجاهدين ونحو ذلك من الإثارات التي تشبه الغازات المسيلة للدموع.

وهذا أسلوب بعض القتاليين الذين يريدون أن يكونوا في أفق يتعالى على النصح أو التصحيح؛ لتكون النتيجة حضانة هذه الأخطاء حتى تكبر وتكثر، وتتمدد وتتبدد، وتظل الأمة تتجرع ثمار حنظلها المُرِّ كرَّة بعد أخرى.

وأما تكميم أفواه الناصحين بحجة أن هذا ليس وقته فإنه لا يتبعه تحديد لوقت آخر، وإنما تأجيله إلى أجل غير مسمى لا تدركه أعمارنا؛ لتبقى الأخطاء في محاضنها تكبر وتكثر، ويتحول ما كان علاجه سهلاً إلى أن يكون صعباً، وما كان تداركه ممكناً يصير متعذراً، ولا يبدأ الجهر بالأخطاء إن بدأ إلا بعد خراب البصرة.

وأكثر ما تُلجمُ به أفواه الناصحين: ألا تشمتوا بنا الأعداء والمنافقين والمتربصين.

ويا لله عندما كانت الآيات تتنزل في عتاب المؤمنين، بل في عتاب النبي الكريم، ألم يكن ثم أعداء ألدَّاء، ومنافقون متربصون؟!

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ ألم ينزل هذا العتاب الإلهي لرسول الله ﷺ في شدة المواجهة مع ملإ قريش في مكة، وهم المتربصون به سخرية وشماتة وإيذاءً؟

ألم ينزل العتاب للمؤمنين وهم لازالوا محل سخرية قريش وأذاهم؟ قال ابن مسعود رضي الله عنه: مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ[1].

وكان المؤمنون مع رسول الله في المدينة يحيط بهم المشركون، ويخالطهم المنافقون، ويتربص بهم اليهود، ومع ذلك كانت الآيات تتنزل تسديداً، وتقويماً، واستنهاضاً، وعتاباً. ولم يكن وجود هؤلاء الأعداء بينهم وحولهم سبباً في تأخير التقويم والتوجيه.

﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

إن العرب كانت تستعيذ بالله من الرأي الدَّبري[2]، وهو الرأي الصحيح يأتي بعد فوات وقته، ويسخر الناس اليوم ممن يسمونه: حكيم ما بعد التجربة.

(١) «صحيح مسلم» (٣٠٢٧).

(٢) الرأي الدبري هو الذي يعرض من الصواب بعد مضي الرأي الأول وفوت استدراكه. ينظر: «البيان والتبيين» (١/ ١٧٢).

وتقييم التجارب ونقدها، ولو بعد حلول الكارثة غير متوفر في كثير من التجارب القتالية، سواء عند الجماعات القتالية، أو الجماعات الحركية، وكثيراً ما يكون نقد الجماعات الإسلامية من الخُلَعاء الذين كانوا يوماً في صفوفها ثم اختلفوا معها وانشقوا عنها، فيكون نقد هؤلاء متحاملاً، متجاوزاً حد الاعتدال؛ لأنه يكون مشوباً بالخصومة واللدد.

لقد تكررت النتائج المريرة لحروب سفكت فيها الدماء، وتراكم بها الدمار، ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾. أفلا تستحق بعد ذلك نظرة موضوعية تُقَيِّم التجربة وتكشف مواضع الخطأ؟!

ولماذا يتكرر الخطأ أكثر من مرة وينتهي إلى ذات النتيجة؟

وكلما اقتحمنا مغامرة ثم فشلنا فيها فبدلاً من الاعتراف بالخطأ نقول: نحن أُلجئنا إليها، واضطرنا عدونا إليها، وكأننا نعيش جبرية مع أعدائنا، وما يضطروننا إليه يرتفع به التكليف عنا، وكأنه ليس لنا خيارات أخرى.

إن المؤكد أن العدو سيُلجئكم إلى مربع القوة الذي يتمتع به، ولن يُلجئكم إلى المواجهة المسلحة إلا وقد رتَّب أموره الدولية، وعرف من معه ومن ضده.

فسبحان الله! ما أعجب أن تكرر الأخطاء نفسها، وتُكرر الأعذار نفسها! وما دام أنه لم يخرج إنسان جريء من داخل الصف يقول: نحن فعلنا هذا، وكان خطأً، وكان يمكننا ألا نفعله فسنظل نكرر الأخطاء بنفس الأعذار.

إنه ليس هناك نصر إلا وله أثمانه من الشهداء والجرحى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾، ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾.

ولكن الخطأ هو في اختلال الموازين، وعكس معيار التقييم، بتحويل الهزيمة إلى نصر، والخسارة إلى ربح.

والواجب المصارحة والمناصحة؛ فما نخسره هو أنهار من دماء الأبرياء، والقبول بما يجري وتحويله إلى انتصارات باهرة يعني حضانة الخطأ وتكراره، والمزيد المزيد من سفك الدماء وخراب الديار.



حرب الدولة وحرب العصابات

تأخر فرض الجهاد حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقامت الدولة، وتكون المجتمع المسلم، ونشأت علاقات مجتمع المدنية بالمجتمعات الأخرى. ثم فرض الله الجهاد بعد ذلك، فكان الجهاد مستوعَباً في النظام المدني، وكان فرعاً له. أما لو فرض الجهاد أولاً، لكان في هذا عسكرة للمجتمع المسلم، في بنيته الداخلية، وفي علاقته بغيره.

إن بين صورة المجتمع العسكري، وصورة المجتمع المدني فرقاً كبيراً جدّاً. وكي يتضح الفرق بينهما، تأمل مجتمع الخوارج والمجتمع المسلم السني؛ هل تجد منتجات لمجتمع الخوارج، سواء كانت فكرية أو تقنية أو مدنية؟ وهل تجد لهم مساهمات في الحضارة الإسلامية؟ بل هل تجد لهم تراثاً أيّاً كان هذا التراث؟ ومن الغريب أنك أيضاً لا تجد لهم مساهمات في حركة الفتح الإسلامي، وهذا أقرب مجالات الدعوة. والفتح الإسلامي لا يصنعه المجتمع العسكري المتوتر، وإنما يصنعه المجتمع المدني المستقر.

وهذا هو الفرق بين حرب الدولة، وحروب العصابات، وأن الحرب لا تنطلق إلا من كيان دولة، فالنبي ﷺ لم يبدأ الجهاد إلا بعد إقامة دولة لها كيانها السياسي،

وبذلك يحدَّد ويوحَّد مصدرُ اتخاذِ قرارِ الحرب، وهو قيادة الدولة، أو ما يُعَبَّر عنه بإذن ولي الأمر، وأن الحرب ليست قرار فرد أو جماعة أو فئة، وأن كيان الدولة السياسي هو الذي يستثمر النصر إذا تحقق، ويعالج آثار الهزيمة إن وقعت.

إن كل الحروب التي تخوضها الأمم والجماعات والمجموعات والطوائف لها أهداف سياسية، ولا أحد يقاتل إلى ما لا نهاية، والحرب لن تكون أبدا غاية، وإنما هي لتمكين السياسي والإداري.

ولذا يقال: يبدأ العنف حين تنتهي السياسة، وتبدأ السياسة حين ينتهي العنف.

وإذا نظرنا إلى هؤلاء الشباب القتاليين نرى أن قياداتهم ليست مؤهلة سياسياً، وحين يُمكنون فالقيادات السياسية عندهم معدومة، ومن يتخذونهم قادةً غير مؤهلين لاستثمار نتائج الجهاد ونتائج الحرب التي خاضها هؤلاء الشباب، فتُسرق انتصاراتهم، ويَقطِف الثمرة غيرهم[1].

وكثيرا ما يخطط المتهورون، وكأنهم في كوكب لوحدهم، وليسوا في عالم صاخب، متشابك العلاقات والمصالح، مزدحم بالأعداء الذين يملكون ما لا نملك، ويخططون قبل أن نفكر.



(١) من مذاكرة مع شيخنا د. عبد الكريم بكار.

ما العمل إذن؟

إن القول باعتبار توازن القوة لا يعني أن تنام الشعوب المستضعفة عريضة الوساد، خالية من الأمل، مستكينة لحالة ضعفها، تجتر آلامها، وتنتظر آجالها، وليس دعوة للانهزام والاستسلام، والإصابة بالشلل المقعد عن الحراك، ولا أن تعيش الأمة بعقلية المنهزم المترقب ما يفعل به، لكنه دعوة إلى تجاوز خطاب التعبئة العاطفي المجرد إلى خطاب التخطيط السُّنَنِي، والذي يعني الاستنفار إلى المساحة الممكنة، والنفرة إلى القدر المستطاع، وبذل الجهد فيه، واستفراغ الوسع له، وملء الأماكن الشاغرة، والتحرك في المساحة المتاحة، واستغلال كل فرص الخير الممكنة، بحيث تتسع مساحة الواجبات وتتنوع الأعمال، وتستفرغ الطاقات في استنفار عام لكل فُرص الخير، ومواطن الإصلاح حتى تُستكمل القوة، وتتهيأ الأمة لِتَبَوُّءِ المكانة اللائقة بها بين أمم الأرض.

ومن الأمثلة المشرِّفة على الجهاد بالقدر الممكن المستطاع؛ ما يفعله أهلنا المرابطون في فلسطين في بيت المقدس وأكنافه، من الثبات في وطنهم، وتعميق جذورهم في أرضهم، والمواجهة بالاحتجاجات والمظاهرات، والصمود أمام العدو المحتل،

والمقاومة الجهادية بالممكن والمستطاع، مما يبقي هذه القضية حية حاضرة، ويحرج العدو عالمياً، ويعمق انتماء الأجيال الفلسطينية في أرضها، ووعيها بقضيتها، ويدمر حلم الصهاينة الأول، حين ظنوا أن الكبار سيموتون والصغار سينسون؛ فما مات الكبار حتى ورثوا قضيتهم لمن يعيشها ويعيش لها.

وكَبُر الصغار وهم يعلمون ولا يجهلون، ويذكرون ولا ينسون، ولا زال الصهاينة يعيشون خيبة أمانيهم، حيث كانوا يظنون أن حال أهل فلسطين ستنتهي إلى ما انتهت إليه قضية الهنود الحمر وسكان أستراليا الأصليين، فإذا هم اليوم مع الجيل الثالث ولا زالوا يراوحون معهم في المربع الأول.

ولا يزال الشيخ المجاهد رائد صلاح حفظه الله، أيقونة ورمزاً عالميّاً في الكفاح الطويل والثبات الصادق، وهو الذي يتحمل غُرم كفاحِه وألمه، وتحملُ الأمة غُنمَ جهادِه وشرفَه، فهو الصابر المصابر، والمجاهد المناضل، من غير أن يتسبب على غيره بضرر، أو يعرض المدنيين العزل إلى هلكة.

إن هذا الثبات رباط في سبيل الله، وهذه المواجهة المحسوبة جهاد مبارك مبرور، وهو في الذروة من سنام الإسلام.

وهكذا إذا عملنا ما هو ممكن اليوم صار ما هو مستحيلٌ اليوم ممكناً غدا. وبالعمل نوسع دائرة الممكن، ونزيد مساحات الحركة والعمل.

ولذا فإن المرحلة المكية، التي كان الحكم فيها: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، لم تكن مرحلة عطالة، أو توقف وانتظار، ولكنها كانت مرحلة حافلة بالعمل، والجهاد في نشر الدعوة، وبلاغ الدين، والرحلات الدعوية، وتلقي الوفود، وعرض الدين عليهم. وكان هناك مع الصبر على الأذى العمل في نشر الدين وبلاغ الرسالة،

حتى فَرَضَ الدين وجوده في مكة، وفشى في القبائل، ففي قبيلة دوس كان الطُّفَيل بن عمرو الدوسي، وفي قبيلة غفار كان أبو ذر الغفاري، وفي قبيلة أسلم كان عمرو بن عَبَسَة السُّلَمي وهكذا في غيرها، بل انتشر الإسلام إلى بقاع شتى وامتد إلى قارة أفريقيا كل ذلك والمسلمون في المرحلة المكية التي لم يشرع فيها قتال ولم يؤذن فيه.

لقد كف المسلمون أيديهم عن القتال في مكة ولكن لم يكونوا قعدة مستكينين بل مجاهدين عاملين، وكان الأمر بكف الأيدي عن القتال يعني بسطها بالعمل.

إنها ليست دعوةً للقعود، ولكنها دعوةٌ للعمل في الإمكان، والحفر في أرضية المتاح، وصناعة مسارات الأسباب، وتوليد فرص التكافؤ.

وتأمل قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ قال: ﴿بِكُمُ﴾ وليس: لكم؛ ليكون لهم فعل وأداة يقذف الله بها لصنع التحولات العملاقة.

وأشار د. ماجد عرسان الكيلاني إلى الخطوات الإجرائية لهذه العملية السننية، في كتابه «هكذا ظهر جيل صلاح الدين»، حيث قدم تراكمية بنائية من عدة أدوار، كان ساكنو الدور الأخير هم جيل الإنجاز التاريخي الذي حرر القدس، فيقول: إن ظاهرة صلاح الدين ليست ظاهرة بطولة فردية خارقة، ولكنها خاتمة ونهاية، ونتيجة مقدرة لعوامل التجديد، ولجهود الأمة المجتهدة، وهي ثمرة مئة عام من محاولات التجديد والإصلاح، وبذلك فهي نموذج قابل للتكرار، **وأن القوة والمنعة إنما ولدت حين تزاوج عنصران هما:**

أ. الإخلاص في الإرادة.

ب. والصواب في التفكير والعمل.

فــإذا غاب أحدهما عــن الآخر، فلا فائدة مــن الجهود التي تبــذل، والتضحيات التي تقدم[1].

تعدد صور الجهاد:

ونخلص من تعدد صور الجهاد إلى عدم انحصاره في ميدان بعينه، كما أن النظرة إلى الجهاد في واقعنا المعاصر يجب أن تكون متجددة على ميادينه التي اتسعت بتطور الزمن، وتسارع إيقاع الحياة، وبالنظر أيضا إلى ما يقتضيه حال المسلمين اليوم من وعي حضاري بطبيعة المعارك المعاصرة **ومن ثَمَّ فإن من أهم أشكال الجهاد المعاصر:**

أ- الجهاد العلمي:

فالعالم من حولنا يشهد كل يوم تطورات علمية كبيرة في كافة مجالات الحياة، وهنا نتساءل: أين المسلمون من ذلك كله؟ أين هم من هذا الرباط العلمي الدائم الذي هو جهاد حقيقي في سبيل الله؟

ب- الجهاد الحضاري:

ويقصد به بذل الجهد من أجل صياغة مشروع حضاري إسلامي معاصر، يعبر عن رؤية شمولية لحاضر العالم الإسلامي، نتطلع بها إلى استشراف مستقبله، في ضوء الشهود الحضاري الرشيد بمتطلبات المرحلة وباحتياجاتها، والتنبه الدقيق إلى وجوب معالجة المشكلات والقضايا التي تطرحها طبيعة الحياة بالعقل الحصيف، والتخطيط السليم، والعلم النافع، والعمل المتقن[2].

---

(١) من مذاكرة مع أخي الأستاذ الخضر حليس.

(٢) من ورقة بحثية للشيخ د. عصام البشير.

إن مشـــكلتنا مع الآخرين ليســـت مشـــكلة صراع فقـــط، فنحن نعانـــي من نوعين من التخلف:

١- تخلف عن المنهج الرباني الذي نؤمن به.

٢- تخلف عن ركب الحضارة الذي نعيش فيه.

والتخلف عن القيم التي نؤمن بها، يحتاج إلى تربية ودعوة.

والتخلف في المجالات الحضارية يحتاج إلى جهد وعلم وعمل، وأمام الناس وخاصة الشباب مجال عمل إصلاحي كبير، وهذا أبدا لا يمكن حله بالسلاح والقتال.

ويمكن للمسلمين أن يفتحوا آفاقاً وأقطاراً فتحاً سلمياً لا تراق فيه قطرة دم؛ فلا يشهرون سيفاً، ولا يعلنون حرباً، إنه «الفتح السلمي» الذي أصَّله الإسلام في صلح «الحديبية» الذي عُقِد بين الرسول ﷺ وبين مشركي قريش لإقامة هدنة بين الطرفين يكف كل منهما يده عن الآخر فسمى القرآن ذلك: ﴿**فَتْحًا مُّبِينًا**﴾، ونزلت في شأنه سورة الفتح، وسأل بعض الصحابة الرسول الكريم: أو فتحٌ هو يا رسول الله؟ قال: «**إي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ**»[1]. إنه الفتح الحضاري الذي يدخل به الناس في دين الله أفواجا، فتح القلوب بالهداية، وفتح العقول بالفكر.

الإصلاح ما استطعت:

إن من عظيم مكائد الشيطان التي يصد بها الإنسان عن صالح العمل، ويثبطه حتى يُخلِد إلى الأرض إغراؤُه بما لا يستطيع، وتزهيده فيما يستطيع، فيتعلق بما لا يستطيع ولن يصل إليه، ويزهد فيما يستطيع فلا يعمله، فتكون النتيجة ألَّا يعمل شيئا إلا التَّزهِيد

(١) «سنن الدارقطني» (٤١٧٩)، و«مستدرك الحاكم» (٣٧١١).

في الأعمال الكثيرة المتاحة التي يستقلها هو ويستثقلها، ويتفارط العمر ولم يعمل شيئاً[1]، وتكون النتيجة تعطيل الطاقة وفوات الفرصة.

إن مشكلة الكثير من الناس أنهم يقضون أوقاتا كثيرة يتحسرون على ما لا يستطيعون فعله ويتركون ما يستطيعون فعله فتضيع أيامهم وأعمارهم في التحسر واليأس والندم!!!

وهذا اليأس ماكر في تغلغله في النفس إلى درجة أن المسلم ينتقل من منطقة العمل والتأثير إلى منطقة البطالة والاهتمام العام دون شعور منه.

وعندما نتأمل في قوله تعالى على لسان شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾، نجد أن المسلم مكلف أن يصلح ما يستطيعه ويقدر عليه من واقعه وليس فيما هو واجب ومطلوب إصلاحه في هذا الواقع؛ لأن الواجب قد يكون أكبر من إمكاناته وقدراته.

والله تعالى سيحاسبنا على ما نستطيع فعله لا على ما لا نستطيع؛ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾.

هذه الكلمات وحدها تزيل أي إحباط ويأس وقنوط في إصلاح الفرد ذاتَه أو أولاده أو أسرته أو مجتمعه أو أمته، وتجعله ينتقل من المطلوب المثالي غير المقدور عليه، إلى الممكن والواقعي والمقدور عليه.

ويزيد التفاؤل والأمل قوله في بقية الآية: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، إذ يدل على أن من معاني التوفيق الإلهي التوجه إلى الإصلاح مهما صغر، وأن الله يطرح البركة في العمل مهما كان قليلا إذا توافر التوكل على الله والإنابة والرجوع إليه.

---

(١) من جواب للشيخ الشريف حاتم العوني في موقع «الإسلام اليوم».

والإصلاح وفق المستطاع منهج الأنبياء فلا نقع في فخ وسوسة الكمال، وأنه إما أن نصلح كل شيء أو ندع كل شيء، وإن «**أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**»[1].

فقد نلقي بذرة فتكون شجرة ضخمة ممتدة الجذور والأغصان بعد حين.

وقد نقول لأحد كلمة ويظهر أثرها عليه بعد سنين.

وقد نخاطب جمعا ليس هم من ينتفع بخطابنا بل أناس من ورائهم لا نعلمهم الله يعلمهم.

وقد تكون حاجة الإصلاح، ليس في أن نشيد البناء، بل أن نبادر بوضع الأساس، ليأتي مَن بعدَنا، فيرفع ويُشيد.

إن من القواعد الفقهية المعتبرة، قاعدة: «الميسور لا يسقط بالمعسور»[2]. وهي قاعدة سارية في كل مناحي الحياة. إن الميسور والمعسور أمران نسبيان، فما يكون معسورا لشخص أو مجتمع أو دولة قد لا يكون ميسورا لشخص أو مجتمع أو دولة أخرى...

ومن الخطأ المنهجي تركيز الخطاب من بعض طلبة العلم والدعاة على المعسور لا الميسور حرصا منهم على تطبيق الدين كاملاً... حتى يكون نتيجة ذلك إدخال الناس في الحرج والمشقة المنهي عنهما وتكليفهم بما هو فوق طاقتهم، وتفويتهم ما كان بإمكانهم، وإدخالهم في مجازفات ومغامرات سيئة العاقبة والمآل.

لقد كان ﷺ يستعيذ بالله من الهم والحزن، والهم للمستقبل، والحزن على الماضي، وفي ذلك توجيه للمسلم أن يركز على حاضره وما يستطيع أن يعمل فيه، فلا

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٤٦٤، ٦٤٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢٨١٨).

(٢) «القواعد» للحصني (٢/ ٤٨)، و«الأشباه والنظائر» للسيوطي (ص ١٥٩).

يتحسر على ماضٍ ولى لم يستطع فعل الكثير فيه، ومستقبل لم يأت بعدُ قد بدت عليه أمارات العجز عن فعل أشياء كثيرة فيه أيضا، بل الواجب التركيز على ما حضر وتيسر[١].

إن اختصار البعض لمشكلة المسلمين وضعفهم في ارتكاب الكبائر أو ضعف الإيمان فقط متغاضيا عن التقصير في عالم الأسباب خطيئة وكبيرة بحد ذاتها.

وعالم الأسباب لا يرحم من لا يملك الكفاءة، والإتقان، والتميز، والعمل الدؤوب في ميدان المنافسة المحتدم، وسيكون لا محالة من الخاسرين في سباق الحياة لا فرق في ذلك بين مسلم وغير مسلم.

وقوانين الأسباب التي جعلها الله في الوجود لن تخرم لأحد يوما، وإن كان عالي الإيمان، أو شديد العبادة، دون أدوات وأسباب مادية يملكها من علوم ونظم وكفاءات، ينافس من خلالها.

وإن معظم عوامل ضعف المسلمين اليوم عائد للإخلال بمعادلة الأسباب لا بمعادلة الإيمان؛ فخير الأمة كثير في إيمانها، وتضحيتها، وبذلها، وإقامة شعائرها، لكن خيرها قليل في معرفة وتملك أسباب نهضتها، والتعامل مع واقعها بأدواته ووسائله ومؤهلاته، ولا زالت عالة في كثير من أسباب قوتها على ما عند أعدائها.

إن الإيمان في ديننا يضبط الأسباب أن لا تخرج عن مسارها ومقاصدها المشروع لكنه ليس بديلا عنها.

والإيمان والعبادة دين، والأخذ بالأسباب دين أيضا[٢].

(١) من مقال «الميسور لا يسقط بالمعسور» د. سعد الكبيسي.

(٢) من مذاكرة مع د. سعد الكبيسي.

سؤال التمكين:

ويأتي التساؤل الملح المتكرر: هل نظل في حال انتظار وأمتنا على هذه الحال من الاستضعاف لها، وتسلط الأعداء عليها، وتحكمهم في مصائرها، وانتهابهم خيراتها؟ أليس التمكين والاستخلاف هو موعود ربنا لنا؟

وليس أشفى للنفس أمام هذا التساؤل من تكرار النظر في آيات التمكين والاستخلاف وتدبرها، والوقوف أمام دلالاتها وهداياتها.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

وعندما نتأمل هذه الآية يتجلى لنا عند أول نظر أن ثمة تكليفاً أمرنا الله به، وموعوداً تكفل الله به.

فأما التكليف فهو الإيمان والعمل الصالح، وعبادة الله وتحقيق التوحيد له، وعدم الإشراك به، وأما الموعود الذي تكفل الله به فهو الاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين الذي ارتضاه لنا، وتبديل الخوف أمنا، وهذا كله موعود حق من الله يتحقق لنا متى حققنا ما أمرنا الله به.

وأن هذه سنة الله الماضية في الأمم قبلنا: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وما دام أن هذا موعود الله فإنه وعد حق، وقول صدق، متحقق لنا لا محالة متى ما تحقق منا شرطه وهو القيام بالتكليف المشترط له.

ولذا فإن واجب الوقت المتعين علينا، هو فعل ما أُمرنا به، وتحقيق ما كُلِّفنا بتحقيقه، ليتحقق موعود الله الذي تكفل لنا به.

ولكن التعجل، جعلنا نشتغل بما تكفل الله به، ونغفل عما أَمَرَنا به، وصار السعي للتمكين والاستخلاف عملنا الذي نعمله، وهدفنا الذي نسارع إليه، مع أن العمل الذي كُلفنا به هو تحقيق الإيمان بالله، وعمارة الحياة بالعمل الصالح، والتوجه بكليتنا إلى الله وحده لا شريك له، بصلاتنا ونسكنا ومحيانا ومماتنا.

وأنه متى حققنا ذلك تحقق لنا موعود ربنا لا محالة بالتمكين والاستخلاف، فقوله الحق ووعده الصدق.

وسيجريه لنا وفق سننه الماضية ونواميس كونه الجارية كيف شاء بأمره الغالب، ومتى شاء بعلمه الواسع، وحكمته البالغة.

وما أعظم خطأنا الذي نخطئه حين نترك ما كلَّفنا الله به، وننشغل بما تكفل الله به[1]!

الأمل والعمل:

١- إن علينا أن نتجاوز أنين التألم لحال المسلمين، والمبالغة في وصف سوء حالهم، حتى صار من سائر القول عند كثيرين: إنه لم يمر بالمسلمين حال هي أشد من حالهم هذه.

وهذه مجازفة في القول، لم يسبقها استقراء للتاريخ وحوادثه، ولحال المسلمين وأحداثها.

فأين نحن من حال المسلمين، يوم كان الإعصار المغولي يعصف بهم من الشرق، والزحف الصليبي يجتاحهم من الغرب. وبلاد المسلمين تتهاوى تباعاً في يد عدو دموي باطش، حتى قال ابن الأثير مؤرخ ذلك الزمان عما فعله التتار من قتل ودمار:

(١) باختصار من محاضرة للأستاذ عبد الإله بن كيران.

فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ آدم، إلى الآن، لم يبتلوا بمثلها، لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها... ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم، وتفنى الدنيا...الخ[1].

ثم تجاوزت الأمة هذه المحنة، وهزمت التتار، وطردت الصليبيين، وامتدت بقوة وفتوة، حتى فتحت القسطنطينية، وطوقت أسوار فينا.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢- والذي ينبغي أن نعلمه ونغتبط به، أن وضع المسلمين اليوم أفضل من وضعهم خلال الخمسمئة سنة الماضية؛ فقد كان المسلمون منذ ضعف الدولة العثمانية في عماية الجهل والأمية، ومتناول مطامع الدول الغربية، وكان الجهل والخرافة والأمية هي الصفة السائدة والغالبة على شعوب المسلمين وقتها، وكان صوت الناصحين المصلحين قصير المدى، محدود الأثر.

أما اليوم، فقد ارتفع وعي المسلمين بدينهم، وانتشر العلم بينهم، كما أن انتشارَهم في دول العالم، وإعلانَهم دينهم في أصقاع الأرض، ودعوتَهم غير المسلمين إلى الإسلام، ودخولَ الناس في دين الله أفواجاً، من جميع الأجناس والملل، كُلُّها مؤشرات إيجابية، ودلائل حياة في الأمة، وحيوية في الدين. واستشعارُ ذلك والاغتباطُ به يبعث في النفوس الأمل والثقة، ويجدد الرجاء، ويطرد الإحباط واليأس المدمر.

(١) «تاريخ ابن الأثير» (١٠/ ٣٣٣)، وتوفي ابن الأثير عام (٦٣٠ هـ)، فكيف لو رأى ما حصل بعد ذلك، وبخاصة عند سقوط بغداد عام (٦٥٦ هـ)؟!

كما أن علينا أن نجدد اليقين بأن الله أغير على دينه منا، وأنه قد تكفل بهذا الدين: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

وعلينا بذل المستطاع من جهد، وإعادة تأهيل الأمة، بمشاريع الإحياء والنهوض، والقيام بالأسباب التي أمرنا بالقيام بها، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



فهرس الموضوعات

شكر وتقدير ٥
قصة الكتاب ٨
حديث الجهاد ١٢
لمن هذه الورقات؟ ١٨
هدف الجهاد ٢٢
شرائع الجهاد ٢٩
استشكال حديث: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ» ٣٤
الجهاد النبوي ٤١
القوة وتوازنها ٥٦
من نبأ المرسلين ٦١
وقائع السيرة النبوية ٧٢
تطبيقات تاريخية ١٠١
تساؤلات ومناقشات ١٠٨
نظرات معاصرة ١٣٢
أهل الثغور ١٤٣
«أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ» ١٥٠
الحرب خَدعة، فمن يُخدع؟ ١٥٩
نقد التجارب القتالية ١٦٥
حرب الدولة وحرب العصابات ١٧٢
ما العمل إذن؟ ١٧٤

كتب للمؤلف

قصص نبوية

الآثار النبوية

سماء الذاكرة

القبر المقدس



اليوم النبوي

صفة حجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كأنك معه

حديث الغدير

الحياة النبوية

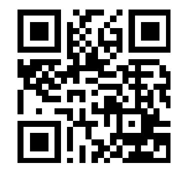


أماكن نبوية



التواصل مع المؤلف

Website



Email



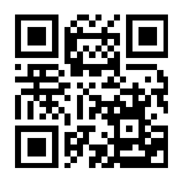
Facebook



YouTube



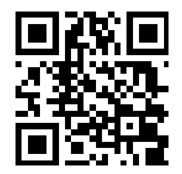
Telegram



TikTok



WhatsApp: (+)905467723779



Twitter





لما رأيت أثر الحوارات في استنقاذ كثير من الشباب المتحفز للقتال، شعرت أن المسؤولية متعينة في إعلان هذا الحوارات، والاجتهاد في تبصير الشباب بدلالات الأدلة، وعرض نتائج التجارب السابقة، والوقوف بهم على الطريق الصحيح للعمل للدين، وإصلاح الأمة، مع الأناة والرفق، وطول الصبر، والاحتمال لسَوْرة الانفعال، وحدَّة الحماس .

واخترت أن يكون عنوان هذهَ الرسالة «سنام الإسلام»، وهو مستل من حديث: «وَذِرْوَةُ سَنَامه الْجِهَادُ في سَبِيلِ اللَّه» . ومعنى ذروة سنام الإسلام، أشرفه وأعلاه، والسنام هو أعلى ظهر الجَمَل، ومعنى ذلك أن هناك قوائم ترفعه، وبدناً يحمله، وسناماً يعلوه، وهذه ذروته، وإن البداءة بذروة الإسلام، قبل إقامة القوائم وسلامة البدن عكسٌ لبناء الأمة، وخللٌ في ترتيب البدايات والأولويات .

وبعد الاجتهاد في بيان الأدلة وتوضيح الحقائق، فإنا لا نزعم أننا قد أتينا بالحل النهائي، وقضينا على كلِّ المشكلة، ولكنا ساهمنا في البيان، وأعذرنا في البلاغ، واجتهدنا في كشف الالتباس، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.


9 786057 204752